

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الباب الأول

السخرية في الشعر العربي القديم

"المفهوم و التطور"

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الفصل الأول

مقدمات مهمة حول فن السخرية

مفهوم السخرية:

أولاً: المدلول الوضعي للكلمة:

أطلقت مادة (سخر) – باعتبار وضعها اللغوي – على عدة معان ، وهي:

١- الاستهزاء:

جاء في لسان العرب: سخر منه وبه سخر ، وسخرا ، وسخرا ، وسخريا وسخريا

وسخرية ، أي: هزئ به .

ويروى بيت أعشى باهلة على وجهين :

إنى أتنتى لسان لا أسربها من علو ، لا عجب منها ولا سخر^(١)

ويروى: ولا سخر، قال ذلك لما بلغة خبر مقتل أخيه المنتشر^(٢) .

ومعنى: ولا سخر في البيت: لا استهزاء .

٢- القهر:

وتطلق كلمة السخرية – أيضا – ويراد بها: القهر .

يقول ابن منظور: والسخر: ما تسخرت من دابة أو خادم بلا أجر ولا ثمن . ويقال:

سخرته بمعنى سخرته، أي: قهرته . وتسخرت دابة لفلان، أي : ركبته بلا أجر . ورجل

سخره : يسخر في الأعمال، ويتسخره من قهره . وسخره تسخيرا: كلفه عملا بلا أجر

أو كلفه مالا يريد وقهره، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر، فذلك

مسخر^(٣) .

١- البيت من البسيط التام .

٢- لسان العرب، لابن منظور، ج٤/٣٥٢ ، "مادة: سخر" الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت- لبنان – ١٩٩٠م .

٣- لسان العرب، ج٤/٣٥٣، ٣٥٤ .

٣- التذليل:

وتطلق كلمة السخرية – أيضا – ويراد بها : التذليل .
جاء في لسان العرب: سخرته، أي: ذللته . وسفن سواخر: إذا أطاعت وطاب لها
الريح . وأنشد ابن منظور: سواخر في سواء اليم تحتقر^(١)
وكل ما ذل وانقاد، أو تهياً لك على ما تريد، فقد سخر لك . قال الله – تعالى -:
"وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ ۝٠٠" (٢) أي : ذللهم .
والشمس والقمر مسخران، أي: يجريان مجاريهما، أي: سخرا جارين عليهما^(٣) .

٤- الضحك:

ومن المعانى التى وضع لها لفظ السخرية – أيضا - : الضحك .
يقول صاحب اللسان: السخرة: الضحة . ورجل سخرة: يسخر من الناس . ورجل
سخرة: يسخر منه الناس^(٤) .

وما سبق يتضح لنا: أن مادة السخرية تدور فى المعجم العربى حول عدة معان
وهي: الاستهزاء ، والقهر، والتذليل، والضحك .

وهذه المعانى الوضعية لا تختلف مع المعنى العرفى للكلمة – الذى سيأتى بعد
قليل – بل توافقه وتلائمه، فالاستهزاء ، والقهر، والتذليل، والضحك كلها معان يشتمل عليها
المعنى العرفى للكلمة، وتظهر فيه بوضوح .

ثانياً: المدلول العرفى للكلمة:

حين نتحدث عن مفهوم السخرية الأدبية، يترأى لنا أن النقاد والباحثين لم
يتكلموا عنها بصورة مستقلة تماماً، وإنما تكلموا عنها باعتبارها جزءاً من ظاهرة عامة فى
الطبيعة البشرية .

١- البسيط التام .

٢- سورة إبراهيم، من الآية: ٣٣ .

٣- لسان العرب، ج ٤/٣٥٣، ٣٥٤ .

٤- لسان العرب، ج ٤/٣٥٣ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

يقول أحد الباحثين: "الابتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا إن هي إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التي سرعان ما تميل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتمس في اللهوترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي كثيراً ما يثقل كاهلها"^(١).

وقد نظر النقاد إلى هذه الأنواع المجتمعة، ورأوا أنها تمثل ظاهرة واحدة وهي "الضحك"، معنيين ذلك بأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع، كما أنه جزء أساسي من هدفها جميعاً.

وقد أعطى الفلاسفة وعلماء النفس اهتماماً كبيراً لدراسة ظاهرة الضحك وتحليلها، وربطها بالنواحي النفسية للإنسان، وقد ظهر من خلال ذلك أنها ظاهرة معقدة جداً، ف"هناك أكثر من مائة نظرية حول الضحك، وكلها نظريات متداخلة يعتمد بعضها على بعضها الآخر بدرجة واضحة"^(٢).

ونظراً لكثرة النظريات والتداخل فيما بينها، يقول بعض الباحثين:

"ولو أننا حاولنا أن نفهم الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية لتبيين لنا أن هناك من أفاين الضحك بقدر ما هنالك من مواقف بشرية"^(٣).

فالمواقف الإنسانية المضحكة كثيرة لا تحيط بها نظريات، ولا يقننها قانون. ومع هذا، فقد لاحظ بعض النقاد والباحثين أن الضحك ناشئ في الأصل عن الشعور بالانتصار في معركة جسدية بدائية، وحاولوا تقسيم الضحك إلى نوعين: ضحك إيجابي، وهو الضحك الذي ينبعث عن غير غرض أو هدف الإضحاك، وهو ما يطلق عليه الفكاهة.

١- سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا إبراهيم / ٨، دار مصر للطباعة.
٢- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد / ٢٢ (سلسلة عالم المعرفة) مطابع السياسة الكويت يناير ٢٠٠٣ م.
٣- سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا إبراهيم / ٨٩، وما بعدها.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وضحك سلبي: وهو الضحك المتولد من الشعور بنقص الآخر، أو ضعفه بمعنى أن له هدفا وغرضا معينا، وهو الاحتقار والازدراء والسخرية.

وكذلك يفعل الباحثون الذين يقسمون هذه الظاهرة باعتبار مصدرها الانفعالي فيرون أن نوع الفكاهة يخضع لنوع الانفعال الذي أثارها.

ومن ذلك أن انفعال الغضب يولد الفكاهات العدوانية والسخرية.

فالسخرية إذن نابعة من انفعال عدواني بين خصمين، ولكن الخصم الأقوى والأقدر منهما هو الذي يستطيع أن يسخر من الآخر، وهذا أيضا تأييد لأن الضحك - عنوان السخرية - مظهر من مظاهر الانتصار والتفوق.

ولهذا كثرت اجتهادات النقاد والباحثين من عرب وأجانب حول تحديد مفهوم السخرية، ورغم كثرة هذه الأقوال والاجتهادات، فإن المحصلة النهائية لكل قول كانت مقارنة لغيره من الأقوال مهما كان اختلاف الأسلوب.

وإليك مفهوم السخرية في اصطلاح النقاد العرب:

عرفها المازني بأنها: "العبارة عما يثيره المضحك، أو غير اللائق من الشعور بالتمسلي أو التقرن، على أن تكون الفكاهة عنصرا بارزا، والكلام مفرغ في قالب أدبي" (١).

ونلاحظ أن هذا التعريف يحدد عناصر السخرية الأدبية في أمور ثلاثة، وهي:

الأول: اشتغالها على الفكاهة والاستهزاء.

الثاني: أنها تصاغ في عبارات أدبية مؤثرة.

الثالث: أن الغرض منها: التسلية، أو الانتقام في صورة الاستهزاء.

- وعرفها بعض الباحثين بأنها: "فن إبراز الحقائق المتناقضة والأفكار السلبية في صورة تغرى بمقاومتها، والرد عليها، وإيقاف مفعولها، من غير أن يلجأ إلى الهجوم المباشر، أو يبدو في موقف يكون فيه هدفا للانتقام" (٢).

١- حصاد الهشيم، إبراهيم المازني/ ٣٠٢، طبعة الشعب.

٢- السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال/ ٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وبالنظر إلى هذا التعريف ، نجد أنه يكشف عن الدور المهم الذي تقوم به السخرية فى تعرية المتناقضات والسلبيات الموجودة فى المجتمع، بهدف العمل على مقاومتها وإيقاف انتشارها، كما أنه يشير إلى أنها أسلوب غير مباشر فى النقد.

- وعرفها بعض آخر بأنها: "العنصر الذى يحتوى على تولىفة درامية من النقد والهجاء، والتلميح، واللماحية، والتهكم، والدعابة، وذلك بهدف التعريض بشخص ما، أو مبدأ ما، أو فكرة أو أى شئ، وتعريضه بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور فيه" (١).

ونلاحظ أن هذا التعريف، قد ركز على ذكر بعض وسائل السخرية، كما أنه أشار إلى أن السخرية منها ما يتوجه إلى نقد الأشخاص، ومنها ما يتوجه إلى نقد الأفكار السلبية، سواء منها ما كان فى الجانب السياسى أو الاجتماعى، وهذه هى أهم اتجاهاتها الموضوعية.

- وعرفها الدكتور نعمان طه بأنها: "النقد المضحك، أو التجريح الهازئ" (٢).
- وهذا يعنى أن السخرية مهما كانت مضحكة، إلا أنها تخفى وراءها هدفا جادا وغاية إصلاحية نبيلة.

- ويعرفها آخرون بأنها: "شكل من أكثر أشكال الفكاهة أهمية، وهدفها عموما مهاجمة الوضع الراهن فى الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير" (٣).
- ويصفها الأستاذ الدكتور شوقى ضيف وصفا فيه شئ من التفصيل بقوله: "السخرية أرقى أنواع الفكاهة، لما تحتاج من نكاء وخفاء ومكر، وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدي الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات ويستخدمها

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.
٢- السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى/١٤، الطبعة الأولى، دار الترفيقية للطباعة بالأزهر
١٩٧٨م.
٣- الفكاهة والمضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٢ (سلسلة عالم المعرفة) مطابع السياسة، الكويت يناير سنة ٢٠٠٣م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الساسة للنكايه بخصوصهم، وهي حينئذ تكون لذعا خالصا، وقد تستخدم فى رقة،
وحيئذ تكون تهكما" (١).

وإذا كان الدكتور ضيف يشير فى كلامه السابق إلى أن استخدام الرفق فى
السخرية يجعلها من باب التهكم ، فإن كثيرًا من النقاد والباحثين لا يتفقون معه على هذا
الزعم؛ لأن المعروف أن التهكم إنما يصدر عن النفوس العنيفة التى لا ترحم حمق الغير أو
جهله فتهكم به .

• ويذكر بعض الباحثين تعريفًا آخر للسخرية، فيقول: "هى طريقة فى الكلام يعبر
بها الشخص عن عكس أو غير ما يقصده، كقول المتألم أو المظلوم: ما أسعدنى !" (٢).
وهذا التعريف وإن كان سهلاً وموجزًا، إلا أنه تعريف قاصر؛ ذلك لأنه قصر السخرية
على أسلوب واحد من أساليبها، وهو السخرية عن طريق القلب والعكس، بينما أغفل بقية
الأساليب ، مما جعل مجالها ضيقاً ومحدوداً .

وقد عرف بعض الكتاب والنقاد الأوربيين السخرية أيضا، وإليك ذلك:

- يقول أحدهم فى تعريفها: إنها طريقة من طرق التعبير، يستعمل فيها الشخص ألفاظا
تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة، وهى صورة من صور الفكاهة تعرض
السلوك المعوج أو الأخطاء التى إن فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة،
وأحسن عرضها، تكون حينئذ فى يده سلاحا مميتا" (٣).
- ويعرفها آرثر برجر بأنها "أحد أشكال المقاومة ، أو قوة خاصة للمقاومة" (٤)
- وعرفها بعضهم بأنها "طريقة فى التهكم المرير، والتندر أو الهجاء الذى يظهر فيه المعنى
بعكس ما يظنه الإنسان، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا" (٥) .

١- الفكاهة فى مصر/١٣، سلسلة دار الهلال ، فبراير سنة ١٩٥٨م .
٢- النقد التطبيقي التحليلي، د. عدنان خالد عبد الله/٢٧، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م .
٣- السخرية فى الأدب العربى ، د. نعمان طه /١٣ .
٤- الفكاهة والضحك ، د. شاكِر عبد الحميد /٥٢ .
٥- السخرية فى الأدب العربى ، د. نعمان طه/١٤ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

هذه المحاولات ، وإن كان سعى أصحابها مشكورا، إلا أننا لا يمكن من خلالها أن نصل إلى تعريف جامع مانع لفن السخرية؛ ذلك لأن السخرية عمل إنساني محض ولا يستطيعها إلا الإنسان، والإنسان متغير، والألفاظ جامدة والجامد لا يضبط المتغير. لذا فقد "أصاب علم المنطق الحديث والباحثون فيه بقولهم: لا يمكن تعريف شئ من الأشياء على وجه الأرض تعريفا جامعاً مانعاً؛ لأن الشئ الحى لا يمكن الإحاطة به وتصويره ببعض ألفاظ قاصرة، إذ هو حى متحرك، والألفاظ مهما تكن جامدة ساكنة" (١).

ولو أننا بالفعل وضعنا الشئ الحى فى قالب جامد ساكن، فإنه إما أن يموت ويفنى، وإما أن يحطم هذا القالب الجامد، ويخرج منه مرتعيا فى أحضان الحياة، ليبقى هو كذلك حيا وخالداً.

وأقرب تعريف إلى الاكتمال من كل التعريفات السابقة: هو التعريف الأول الذى أوردناه للمازنى ، وقد عللت ذلك من قبل .

أما بقية التعريفات، فقد وجدنا فيها خلطاً وتداخلاً بين وصف السخرية وإبراز أهميتها ، وذكر عناصرها، وأهدافها، واتجاهاتها، مما يجعلها - من وجهة نظرى - عاجزة عن تحديد مفهوم دقيق للسخرية.

والسخرية والهجاء والعلاقة بينهما:

جاء فى لسان العرب: أن الهجاء فى اللغة: الشتم بالشعر، وهو خلاف المدح قال الليث: هو الوقعة فى الأشعار.

وقد ذكر اللسان العربى لمادة "هجو" عدة معان لغوية: فالهجاء: القراءة وتقطيع اللفظة بحر، فها، وهجو يومنا: اشتد حره، والهجاء: الضفدع، وهجى البيت هجياً: انكشف، وهجيت عين البعير: أي: غارت (٢) .

فمادة الهجاء تدور إذن حول معانى البشاعة والقبح والشدّة والنكال والكشف.

١- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/١٤، ١٥ .

٢- لسان العرب، ج ٣٥٣/١٥ "مادة هجو".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- لذا عرفه بعض الباحثين بأنه: تعداد للمعائب، وكشف لبشاعة الرذائل والنقائص في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية^(١).
- والهجاء عند نقاد الأدب نوعان: هجاء شخصي، وهو ما عرفته العربية ودرج عليه معظم الشعراء.

وهجاء اجتماعي، ويراد به: ذلك اللون التهكمي الساخر منه، والذي يقصد إلى إبراز عيب في المجتمع، وتصويره في صورة بشعة؛ رغبة في الإصلاح والتقويم^(٢).

وعندما ننظر إلى علاقة السخرية بالهجاء، نجد أن النقاد والباحثين قد اختلفوا في تحديد هذه العلاقة على النحو التالي:

١. الترادف المشروط:

ذكر بعض الباحثين أن السخرية قد ترادف الهجاء، وذلك إذا تحقق فيها شرطان.

أولهما: صدق المعنى، ومعناه: أن يذكر الشاعر تعليلا للسخرية، بأن يذكر لها سببا يقتنع به السامع.

وثانيهما: صدق التصوير، ومعناه أن يكون حكم الشاعر على المسخور منه، صادقا ومقبولا لدى السامع، ومناسبا للسبب الذي دعاه إلى السخرية منه.

فإذا تحقق هذان الشرطان في السخرية، كانت مرادفة للهجاء، مدرجة ضمنه ولكن تحقق الشرطين في شعر السخرية أمر بعيد المنال؛ لأن غالبية شعر السخرية غير معلل أما عن كون الحكم صادقا، ومقبولا لدى السامع، فهذا أمر مستبعد أيضا؛ إذ كيف يكون الحكم مقبولا لدى السامع، والغرض من السخرية إثارة الضحك؟ وإثارة الضحك

١- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمي/١٢، دار المسيرة - بيروت .
٢- انظر: الشعر الاجتماعي عند جماعة الديوان، د. رزق محمد داود/٨٤ (رسالة دكتوراه ١٩٨٦م).

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

لا تكون إلا بغريب الأحكام، وأشدها مبالغة، فإذا جاء الحكم على ما يتوقع لم تؤد السخرية غرضها^(١) .

• ولعل ذلك هو ما دفع بعض النقاد إلى القول بالمغايرة بين السخرية والهجاء من حيث المنشأ والغرض، فالهجاء: صادر عن نفس واجدة غاضبة حاقدة بينما السخرية صادرة عن نفس ساخرة ناقدة، مبرأة من الحقد والموجدة .
ثم إن الغرض من الهجاء: التجريح والتشهير والانتقاص والعدوان، بينما الغرض من السخرية: التهذيب والتقويم والإصلاح . ويكثر في الهجاء السب والإقذاع لكن السخرية لا سب فيها ولا إقذاع^(٢) .

٢. الامتزاج من ناحية والافتراق من ناحية أخرى:

ذهب بعض النقاد إلى القول بأن السخرية تمتزج بالهجاء من ناحية الوظيفة والغرض، فكلاهما غرضه واحد، أو يكاد، وهو الانتقام والتشفي، لكنهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التي يشتمل عليها كل منهما، أو بتعبير آخر: هما يفترقان في طريقة الوصول إلى الغرض المطلوب، فالهجاء طريقة مباشرة في الهجوم على الخصم، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة في الهجوم^(٣) .

٣. أن السخرية جزء من الهجاء وطور من أطواره:

يذهب أصحاب هذا الرأي: إلى أن السخرية مرحلة متطورة من مراحل الهجاء وقد ظهرت بشكل واضح في العصر الإسلامي على يد الحطيئة، وحسان بن ثابت، وغيرهما وإن كانت لها جذور في العصر الجاهلي، وقد نمت وترعرعت عند شعراء النقائض، واشتد

١- راجع في ذلك: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفى/٣٩٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

شعر الهجاء بين الحطيئة وابن الرومي، للباحث/عادل نصورة التماسحي/٦٣ وما بعدها .

٢- انظر: الفكاهة في الأدب، د. أحمد الحوفي، ج١/٧٢، ملتزم الطبع والنشر: مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٦م .
٣- انظر: السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/١٠، الطبعة الأولى، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

عودها، واستوى على سوقه في العصر العباسي، حتى أصبحت سمة غالبية على معظم شعر الهجاء^(١)، ونحن نؤيد هذا الرأي لأنه أعد لها.

وهذا معناه ان السخرية فن قائم بذاته في الهجاء ، يرتفع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع، الذي يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة. وعلى ذلك، فالعلاقة بين السخرية والهجاء: علاقة العموم والخصوص فالهجاء مصطلح عام، والسخرية مصطلح خاص ينضوى تحت لوائه، وقد ظهر نتيجة ارتقاء الأدواق، وتغير الطباع؛ بسبب الحضارة.

ومع أن الأقوال السابقة قد اجتمعت كلمتها على أن الهجاء يحمل بين طياته الحقد والكراهية والبغض، وأنه يتسم بالغلظة والخشونة والجفاف، فإن الهجاء قد يكون هو السلاح الوحيد في بعض الأحيان ذلك أن الفساد والتعفن حين يصل إلى قمته، فإن التورية، والتلميح، والغمز، واللمز تصبح أسلحة غير فعالة بالمرّة.

• ويشير بعض النقاد إلى أن إصابة الهدف بأقل قدر ممكن من التجريح من الشئط الأساسية التي يجب أن تتوفر في فن السخرية، أما الهجاء الفاحش، والإهانة والسب الصريح فلا يدخل في فن السخرية، وإنما هو شئ آخر^(٢). والظاهر: أن هناك نوعين من الهجاء: نوعا أنشئ لأجل الهجاء والسب والإقذاع فقط، وهذا النوع ليس داخلا في موضوعنا.

ونوعا آخر قصد به السخرية، فهو هجاء السخرية، والشاعر لا يصدر فيه غالبا عن حقد أو سخط، وإنما يعتمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره في صورة هزئية على سبيل التندر والدعابة والظرف^(٣).

١- راجع: الهجاء في الأدب الأندلسي، د. فوزى سعد عيسى/١٦، ١٧، دار المعارف.
٢- راجع: الأدب الساخر د. نبيل راغب/٢١ (سلسلة مكتبة الأسرة) الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.
٣- راجع: الهجاء في الأدب الأندلسي، د. فوزى سعد عيسى/١٨٧، دار المعارف "بدون تاريخ".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

• دوافع السخرية وبواعثها:

تختلف النظرة إلى الحياة – بما فيها من مثل وأخلاقيات – من شخص لآخر فهناك الإنسان العادى الذى ينظر إلى الحياة فلا يكاد يرى أو يحس فيها بما يؤم الشعور أو يجعل النفس تضيق به ذرعا، حتى ما يراه فيها من مخالفات سلوكية، أو مفارقات غريبة، فإنه لا يعير ذلك اهتماما، ولا يفكر فى كيفية علاجه أو تقويمه.

وهناك الإنسان الذى ينظر إلى الحياة – بما فيها – بمثابة وحساسة، فهو يرى – من خلال صحبته للحياة – كل نافع وكل جميل فيها، ويشجع الناس على الإقبال عليه وطرح ما عداه مما يعد تشويها للمجتمع، فهو يرسم للحياة ولالأحياء فى مخيلته صورة من الكمال والمثالية التى ترتبط بالواقع، فإذا ظهر ما يناقض ذلك، أو يقلل من نسبة الارتباط به، كان علاج ذلك عن طريق السخرية التى تدافع عن هذا الواقع وتحافظ عليه، لأن صحبتنا لهذا الواقع كانت قوية، وتعلقنا به كان أقوى وأوثق.

لذا يمكننا أن نشير هنا إلى أهم دوافع السخرية وبواعثها فى

النقاط التالية:

(١) المتناقضات :

- أكثر الأمور تسيير فى الحياة على نظام مألوف وثابت، فلا نشعر نحوها بغرابة أو شذون، ولذا فنحن لا نضحك من هذه الأمور، لأن الشئ المألوف لا يضحك، أما الشئ الذى يغاير المعهود والمألوف، فقد يثير اشمئز، وقد يثير ضحكا؛ لأنه يعد نوعا من فقدان التوازن المنشود، وهو تصلب فى الجسم، أو فى الطبع، أو فى الخلق، ينذر بتقهقر الإنسانية، أو توقف نشاطها وتطورها^(١).

١- راجع: الفكاهة فى الأدب، د/أحمد الحوفي، ج ٣٧/١، ٣٨.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وهذا الأمر يدفع المجتمع إلى تقويمه وعلاجه عن طريق السخرية منه والضحك عليه، والحياة مملوءة بالتناقضات، وهي كثيرة ومتنوعة، نراها ونقع عليها في حركة الناس في الحياة، وفي احتكاك بعضهم ببعض.

"فقد يقع لأحدنا أن يصنع معروفاً في شخص ما ولكن يحدث ما لم يكن متوقعا، وما لم يخطر على البال، إذ تأتي النتيجة أشبه بالتكرار للعمل والتمرد عليه عند ذلك تتنبه أحاسيس المقارنة بين العمل وبين نتيجته، وبين ما كان يجب أن يكون، فيبدو الموقف. مثيراً للسخرية؛ لأنه عجز عن التوافق مع الخصال الإنسانية المعقولة أو مع المثل العليا"^(١).

والمرأة العجوز المتصابية - التي تسرف في التبرج، فتخرج بهذا السلوك عن العرف العام لمثيلاتها الطاعنات في السن، رغم عجزها في نفس الوقت عن توفير الطاقة اللازمة للمطالب الجسمية والنفسية والشكلية لمظهرها وزينتها - تؤدى إلى الإحساس بالتناقض في المجتمع، وهنا تأتي السخرية باعتبارها علاجاً وتقويماً لهذا الخروج.

• يقول البهاء زهير^(٢) في امرأة مسنة تدعى التصايي، وتتعلل بالخضاب منكرًا

عليها هذا التصرف الشاذ المنافي للقيم والسلوكيات الفاضلة^(٣):

يا هذه، ذهب الصبا فإلى متى هذا التصايي؟

فدعى معاشرة الشباب فقد يؤست من الشباب

ما هذه شميم الحرا (م) ئر، لا، ولا شميم القحاب^(١)

١- السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال ٢٦٠

٢- هو أبو الفضل زهير بن محمد المهلب، ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور زمن الأمويين، ولد في وادي نخلة على مقربة من مكة سنة ٥٨١ هـ، ونشأ في مدينة "قوص" بصعيد مصر، ثم هاجر إلى القاهرة ومدح سلاطين بني أيوب، وتولى ديوان الإنشاء، ثم أقصى عنه، وظل هكذا حتى مات سنة ٦٥٦ هـ.

- ينظر في ترجمته: وفيات الأعيان، ج ٣/٣٣٢، ت د. إحسان عباس، ط/دار الثقافة ببيروت.

الأعلام، الزركلي، ج ٣/٥٢، ط/دار العلم للملايين لبنان بيروت.

٣- ديوان البهاء زهير ٣٧، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد طاهر الجبلاوي، ط/دار المعارف الثانية، "والأبيات من مجزوء الكامل".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فإذا عددتك فى الكلا (م) ب، حططت من قدر الكلاب
ما أنت ممن يرتجى لا فى الخطوب ولا الخطاب

"إننا نسخر من الغير، إذا وجدنا فيه مغايرة لطبيعة المجتمع ، وشدونا عن واقع الحياة ، فالحياة تحب أن ترى أثرها فى الأحياء، من نشاط وحيوية وحركة فإذا وجدت غير ذلك ثارت عليه، ومن ثورتها: السخرية والضحك والتهكم" (٢) .

• والغرض من السخرية حينئذ: هى إنزال نوع من العقاب على الشخص الشاذ عن التقاليد، لعله بذلك يفيق من غيبوبة الإحساس الزئف .

(٢) النقمة على المجتمع أحيانا:

يتعدى الهجاء الاجتماعى الساخر حدود الذات، ليشمل مساحات أوسع وأرحب من حياة المجتمع، فيصور ما يعانیه هذا المجتمع من اضطراب أو قصور أو فساد "فهناك ضرب منه يصور نقمة الفرد على المجتمع ، وثورته على ما يشهد فيه من اختلال فى المقاييس والقيم ، ويرى أحد الباحثين أن هذا الضرب أكثر أنواع الهجاء تعقيدا وأعمقها تجربة إنسانية" (٣) .

والإنسان الساخر هو ذلك الإنسان الذى يتعالى بنفسه عن المجتمع، لشعوره بشيء من النقص أو الحرمان ، فيحاول أن ينقد المجتمع بإظهار ما فيه من جوانب النقص والتشويه؛ انتقاما لنفسه المهذرة، وإخفاء لهذا النقص الذى يلازمه ويلاحقه .

كما أن المجتمع توجد فيه – فى كثير من الأحيان – جوانب كئيبة، كضياع أهل الفضل، وارتفاع شأن المهرجين والمصنفين مع كل اتجاه ، وتوهج نجم الكذابين والمخادعين وأقول نجم الصادقين والأمناء ... وغير ذلك من المثالب والمغامز التى تصل بالمجتمع إلى قمة

١- القحاب: جمع: قحبة ، وهى العجوز، وأهل اليمن يسمون المرأة المسنة: قحبة، والكلمة مولدة (اللسان ، مادة قحب، ج١/٦٦١) .

٢- السخرية فى أدب المازنى ، د. حامد الهوال / ٢٩ .

٣- الهجاء فى الأدب الأندلسى ، د. فوزى عيسى/ ١٦٣ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

التعفن، وتكون مدعاة وباعثا على السخرية والتهكم والنقد اللاذع لهذا المجتمع، كنوع من التشفى والانتقام .

"فالسخرية ليست بالضرورة مثيرة للضحك؛ لأنها يمكن أن تكون مرة خاصة عندما تهاجم الجانب المتجهم من المجتمع، وربما أثارت ابتسامة المتلقي ولكنها ابتسامة مريرة ساخرة من الأوضاع المقلوبة في المجتمع ... وغالبا ما تحمل ابتسامة السخرية شحنات من الأسى والهم تفوق في درجتها وكثافتها الشحنات الكامنة في البكاء والعيول"^(١)

(٣) البغض والانتقام الهادئ:

• للعداء بين الناس أسباب كثيرة، فقد ينفجر بركان العداء والشقاق بين شخص وآخر نتيجة الاحتكاك الناشئ بينهما في شأن من شئون الحياة وقد يكون سبب العداء هو ظهور النقص في شخص آخر متعال، ولكنه - مع ذلك - لا يشعر بما هو غارق فيه من نقص، فيأتى الإنسان الساخر فيحاول أن يعيده إلى صوابه، وإلى حالته الحقيقية، ويجعله يفيق من غيبوبة الإحساس الكاذب بالعظمة والاستعلاء، وذلك عن طريق البحث عن عيوبه ومثالبه، ومحاولة تضخيمها وإعلانها على رؤوس الأشهاد بصورة مضحكة ولادعة لغرض الانتقام .

ف"البغض والانتقام هما الشيطانان التوءمان اللذان يولدان السخرية"^(٢) .

وبما تجدر الإشارة إليه، أن البغض الذى أشرنا إليه، ليس هو ذلك الخلق الذميمة البغيض الذى يورث صاحبه الكراهية لأخيه، والرغبة فى الاستئثار بكل خير من دونه وإنما هو تجاوب النفس الحساسة مع الحياة والأشياء^(٣) بدليل رغبة الإنسان الساخر فى إصلاح الحياة، وتقويم المجتمع من خلال إشارته إلى مواطن العطب فيه .

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/ ٢١ .

٢- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/ ١٦ نقلا عن العقل الباطن لأدلر، تعريب حافظ محمود/ ١٠٧ .

٣- راجع: مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد (١٤)، ص ٣٣٤، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومع ذلك، فليس بخاف أن هذا البغض ليس متجها صوب الأشخاص وإنما هو مصبوب على السليبيات من الأخلاق والسلوكيات، وهنا يصبح أمام الشاعر نوع من التحدى الصعب، إذ كيف يفرق فى داخله بين مشاعر حب الإنسان، ومشاعر كراهية أخلاقه وسلوكه، ولا يقدر على هذا إلا القليلون من الأدباء من أصحاب القلوب الواسعة، والنفوس الحساسة.

(٤) الشعور بالتعالى والغرور:

قد تتولد السخرية نتيجة الإحساس بالغرور والتعالى من جانب الشخص الساخر فقد يكون الغرور متأصلا فيه، فنراه يعمد إلى ركوب صهوة الغرور والتكبر ساخرا، وناقدا وباحثا عن العيوب والنقائص فى محاولة لتضخيمها بصورة تزرى بهذا المجتمع، وتضعه فى مكانة غير لائقة.

لذا يقول الأستاذ/عباس العقاد: "فالعبث والغرور بابان من أبواب السخريل هما جماع أبوابه كافة" (١).

ذلك أن الغرور يدفع صاحبه إلى السخرية من المجتمع ومن أفراد، سواء أكان ذلك بالحق أم بالباطل، إذ يكفى – من وجهة نظر الساخر – أن يكون هو غير راض عن وضع معين أو سلوك بعينه فى المجتمع، فيدفعه عدم الرضا إلى إشهار سلاح السخرية فى وجه المجتمع وفى وجه الآخرين.

ويقف المتنبى على رأس هذا الاتجاه فى أدبنا العربي.

(٥) قوة الإحساس بالواقع:

والسخرية قد تكون منبعثة من الحساسية الزائدة عند الإنسان الناقد فدرجة الإحساس عنده قد تكون عالية، ويكون هو ذا بصيرة نفاذة تلتقط عيوب ونقائص المجتمع الذى يعيش فيه بيسر وسهولة، مع ارتباط ذلك بتأصل نزعة المرح والدعابة فى نفسه، مما

١- مطالعات فى الكتب والحياة/٨٩، ط/التجارية ١٩٢٦م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

يدفعه إلى تناول جوانب النقص في الأشخاص أو المجتمع بأسلوب ساخر متهمك ؛ قصدا إلى الإصلاح والتقويم.

وقد يقصد الأديب الساخر من وراء ذلك معالجة هذه الحساسية الزائدة "لأن الحساسية مرض ، قد يتناهى حتى يتعب صاحبه، فيجعله لا يرضى عن شئ في الحياة، ويهديه الإحساس بوجوده الطبيعي ، وحب البقاء إلى الفطنة لهذه الوسيلة في علاج نفسه، أو التفتيش عما يشعر به"^(١).

وقد نشعر - في هذه الحالة - أن السخرية خفيفة ، وأن الأديب لا يقصد إضحاكنا وإن كان في داخله "يعانى إحساسا بالمرارة لم يتوقف به عند حافة الحزن والألم ، ولكنه ثار عليه ، وتعالى على السكينة تحت ضغطه، وأخذ يصوغه في ثوب جديد، قد يكون رمزيا وقد يكون صريحا يحمل كل مظاهر الاستخفاف والتعالى الساخر الذي يعنى الانتصار على الأحداث ، أو تخطي الحواجز التي قد يعجز عن تخطيها الآخرون"^(٢).

والواقع أن الاستخفاف وما يصاحبه من الإحساس بالمرارة يقومان مقام عنصر الإضحاك في السخرية، وحتى لو خلت السخرية هنا من عنصر المرح والإضحاك فهو لا يؤثر عليها؛ لأن من السخرية ما يأخذ أحيانا صورة جدية تخلو من عنصر الإضحاك وهي في نفس الوقت محققة للهدف ، ومصيبة للغرض.

والحق أن الإنسان كلما كانت صلته بهذا الواقع قوية، كان أقدر على الإحساس به ، وأشد حرصا عليه، وأشد اهتماما بأن يكون منسجما ومقبولا.

"فكل شئ يمس هذا الواقع ويعاكسه ، يصبح في نظر الإنسان هدفا للحرب أو المقاومة وقد لا يصل الأمر إلى هذا الحد فتعالجه طبيعة الإنسان الفنية بوسائلها الرقيقة الهادئة ، التي تستخدم الذكاء الإنساني الموروث في تحقيق أهدافها..... وبوحى هذا

١- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/١٧٠
٢- السخرية في أدب المازني ، د. حامد الهوال/٢٠٠

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الرصيد نستخدم أسلوب السخرية في الحفاظ على الواقع الذي طالت صحبتنا له وتعلقنا به" (١).

(٦) الميل الفطري إلى المشاكسة:

الشر والعدوان عنصران متأصلان في النفس البشرية، حتى لولم يكن هناك داع لهذا الشر، فإن نفس صاحبه دائماً تسعى إليه، وتهدف إلى إغاضة الناس والتشفي منهم عن طريق إيلاهم، وإثارة كوامن الأسي في نفوسهم عن طريق جرحهم بمشروط السخرية والتهمك.

وقد يكون دافعه إلى هذا الصنيع: ضعة أصله، وحقارة منبته، ورغبته في الانتقام والتشفي من الآخرين.

"وهذا متأصل في الطفولة الإنسانية حينما نرى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة، أو يعتدون عليها من غير ما رحمه أو شفقة لغير سبب ظاهر ونرى بعض الناس قد تأصل فيهم الميل إلى المشاكسة، وجرى في طبعهم إلى حد مضايقة غيرهم، والشعور باللذة حينما يرون غيرهم يتألون" (٢).

ولا يزال الشر ينمو ويتكاثر بين طوايا النفس حتى يحدث لها نوعاً من التضخم الذاتي المذموم، الذي يدافع عن نفسه من روية تحقير الآخرين، والحط من قدرهم. ولعل المثال الواضح لهذه الظاهرة في أدبنا العربي هو الشاعر "الخطيئة ت ٥٩هـ" فقد "ولد في بنى عبس دعيا لا يعرف له نسب، ولا يصله بالشرف سبب، فشب محرماً مظلوماً مذموماً لا يجد مدداً من أهله، ولا سنداً من قومه؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت، ويدفع به العدوان، وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته" (٣).

١- المصدر السابق/٢٤، ٢٥.

٢- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/ ١٨.

٣- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ط/٢٤/١٥٥، طبعة المدارس الثانوية العليا.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وإذا فقد "عدا على الناس بالشتم ينال منهم قبل أن ينالوا منه" (١) .
وهكذا تساعد النشأة الدنيئة على تأصيل جانب الشر والمشاكسة في نفوس بعض
الأشخاص، حتى يصبحوا معاول هدم تقوض صرح المجتمع وتهدم كيان أفرادها .
وما حدث ذلك إلا نتيجة حتمية لفقدان التوازن بين الإنسان وبين مجتمعة وبينه
وبين نفسه .

(٧) التفاؤل والتشاؤم:

تختلف نظرة الناس إلى الحياة اختلافا واضحا، ومرجع هذا الاختلاف هو أنهم
مختلفون كذلك في حبهم لها، وإقبالهم عليها، أو بغضهم لها . والإنسان المقبل على الحياة هو
ما يعرف بالإنسان "المتفائل" أما الإنسان الكاره لأوضاع الحياة والأحياء، فيطلق عليه
الإنسان "المتشائم" "والتشاؤم والتفاؤل مرجعهما إلى الإنسان، فهو الذي إن قبل الحياة كما
يهددها القدر إليه أشرقت نفسه واعتبطت وابتسمت، وإن لم يقبلها وأحس بأشواكها
وشرورها، أظلمت نفسه ويئست وبتأست، فنفس الإنسان هي التي تعكس له الحياة إما
نقية جميلة، وإما كدرة قبيحة" (٢) .

• والأمل هو سر حياة الإنسان ، والتمسك به بعد – في حد ذاته – تمسكا بالحياة وهو
لون من الثقة التي تملأ جوانب النفس البشرية بالتفاؤل وتشعر الإنسان بأنه قادر
على التغلب على كل الصعوبات والعقبات التي قد تعترض طريقه في أثناء رحلته
في الحياة، ولكن هذا الأمل قد تخبو جذوته في داخل النفس، وتصبح الحياة معتمة
في عين ذلك الإنسان، فيرى النصف الفارغ من الكوب ولا يرى النصف الآخر
المملوء .

١- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان النيمي/٢٢ .
٢- دراسات في الشعر العربي المعاصر، د. شوقي ضيف/١٨٩، الطبعة التاسعة، دار المعارف ١٩٩٣م (بتصرف) .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- وطريقة الناس فى التعامل مع الحياة والأحياء، تتفاوت من حيث التفاؤل والتشاؤم ، ومع ذلك فالنتيجة واحدة؛ لأن "التشاؤم يدفع الإنسان إلى السخرية من كل شئ، والتفاؤل والاستخفاف بالحياة يدفع الإنسان كذلك إلى الاستهانة بالحياة، والسخرية من مآسيها، ومقابلة آلامها وهمومها بالابتسام والرضا"^(١).
 - والتفاؤل والتشاؤم يعدان من الأمور المألوفة التى نلمسها فى حياتنا اليومية فنحن نرى المتشائم الذى تضيق نفسه بكل ما حوله من حياة وأحياء، فيدفعه ذلك إلى إشهار سلاح السخرية فى وجه كل من يحيط به ، أو يتصل به بسبب كنوع من العقوبة التى ينزلها على رأس المتمتعين بالحياة وبهجتها على حين أنه محروم من كل تلك المباح والمحسن.
- وهذه النزعة مرفوضة دينيا؛ لأن المؤمن لا يمكن أن يصاب بالإحباط والقنوط أو يتسرب القلق إلى نفسه، لأن ثقته بالله أقوى من كل شئ، فإذا لمعت فى تشاؤمه بارقة من الأمل، وكان للبياض نصيب فيه، فهو تشاؤم لا تضيق به النفس.
- ووقت الشباب – غالبا – هو وقت التشاؤم ، ثم تبدأ النفس بالتخفف من هذه الخاصة تدريجيا حتى يحدث الصلح بينه وبين الحياة.
 - يقول الدكتور محمد مندور: "ولا غرابة فى ذلك، فالشباب هو عصر التشاؤم والخصام مع الحياة، بينما يقل هذا التشاؤم حدة، ويزداد المرء تسامحا كلما طال العمر، واتسعت التجارب ، وكأن معاشره الحياة تنتهى إذا طالت بالصلح معها وقبولها على علاقتها ، أو الاستخفاف بها، والانتقام من مآسيها بالسخرية"^(٢).
- ويظهر من هذا النص أن السخرية نتيجة مترتبة على نزعتى التشاؤم والتفاؤل حيث إن كلتا النزعتين تنتهى إلى السخرية والتهمك من الآخرين فى نهاية الأمر.

١- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصور ، العدد ٣٣٢/١٤ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢- إبراهيم المازني، د ، محمد مندور/٢٢، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٤م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وفى أدبنا العربي القديم والحديث أمثلة عديدة لهذا الاتجاه، أمثال: ابن الريمي والمتنبي، وأبي العلاء، وعبد الرحمن شكري، والمازني، والشرنوبلي، ومحمود أبو الوفا، وغيرهم كثيرين .
"ونحن لا نستطيع أن نفهم هذا الشعور حق الفهم إلا إذا رجعنا بذاكرتنا إلى مصر فى مفتتح هذا القرن (القرن العشرين) وما كان يجثم على صدرها من غمة الاحتلال

الإنجليزى ، وما كان يتلاحق عليها من الكوارث والفواجع والأخطار" (١).

وهو ما جعل الشباب المصرى يشعر شعورا حادا بالألم واليأس، بسبب ما يجده ملقى على عاتق مجتمعه من أغلال وأثقال ، وما يجده بين جوانبه من فساد وقيامة "فقد طلعت موجات اليأس طغيانا جارفا فى تلك الأيام السود، أيام الاحتلال على جميع الشباب وجميع النفوس، وهو طغيان قد فل العزائم، وثبط الهمم، وأمات الآمال والقلوب فلم يعد الشباب يستطيعون الإقدام والعزم الصادق بل أصبحوا فريسة الإحجام والتردد والخنوع، بل لقد أصبحوا فريسة الشك الأسود الذى يحيل الحياة كلها سوادا ، بل لقد أصبحوا غرقى فى يم لا ضفاف له" (٢).

والحال كذلك مع الإنسان المتفائل المقبل على الحياة، الذى لا يرى فيها إلا الأمل المشرق، والمستقبل البسام، فإن تفاؤله هذا يدفعه هو كذلك إلى الاستخفاف بما حوله من حياة وأحياء .

وتفاؤل الإنسان بالحياة، ينبغى أن يكون تفاؤلا منضبطا بضوابط العقل السليم والفكر الراشد "فهو لا يتفاعل تفاؤل البله، ولا تفاؤل من يأخذون الحياة من ظاهرها المضى، ويبيضون دون تفكير فى جوانبها المظلمة" (٣).

١- دراسات فى الشعر العربى المعاصر، د/شوقى ضيف / ١١١٠ .
٢- دراسات فى الشعر العربى المعاصر، د. شوقى ضيف / ١١٢٠ .
٣- المصدر السابق / ١٨٣٠ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فاقترن التفاؤل بالإحساس بالألم والقلق والأسى، يعطى لهذا التفاؤل قيمته ويجعله تفاؤلاً إيجابياً متجاوباً مع أحداث الحياة، فالإنسان "يقبل على التفاؤل فراراً من التشاؤم الكريه ، وما يجر من حزن وقلق، بل لكأنه الملجأ الذى يجد فيه راحة قلبه من الهواجس المخيفة، والخواطر المفزعة المرعبة، وهى خواطر لا تأتية من إحساسه بآلام الإنسانية وحدها، بل تأتية أيضاً من عجزه عن حل ألغاز الوجود وفهم أسرارها" (١) .

وهكذا نجد التفاؤل والتشاؤم متساويين فى نهاية الأمر، من حيث إن كلا منهما يدفع صاحبه إلى السخرية والتهكم والاستخفاف بالحياة والأحياء .

(٨) فساد الواقع السياسى والاجتماعى:

لعل من أهم دوافع السخرية: "فساد الحالة السياسية والاجتماعية" وفساد الحالة السياسية فى أى مكان يدفع أدباء ذلك المكان إلى السخرية والتهكم ، وإلى البحث عن جوانب النقص والعيوب، وإبرازها فى صورة تثير الاشمئز؛ قصداً إلى العلاج وإصلاح المجتمع المتهاوى .

• ونحن إذا نظرنا إلى الأمة المصرية، نجد أنها رزحت تحت حكم العثمانيين زمناً طويلاً، ولم تكد الأيام تعصف بهذا الحكم ، حتى وقعت الأمة المصرية مرة أخرى فريسة للاستعمار الأوروبى اللعين، الذى مزق شملها، وحرمها خيراتها، وأذاقها ألواناً من الهوان متمثلاً فى ظلمه واستبداده وإطلاق يده فى البلاد .

وقد ترتب على سوء الوضع السياسى: ظهور فن السخرية بأسلحته الفتاكة فقد أخذ أدباء الأمة وشعراؤها "يسخرين ويتهكمون من غباء الحكام، وجهل الوزراء والكبراء وسخف الملوك والأمراء، فإذا أخفت الحكومة فشلاً تردت فيه، جاء الخبر – الذى حاولت الحكومة جاهدة أن تخفيه – محمولاً على الأكتاف نظماً فكاهياً يدين الحكومة، ويسخر منها، ويكشف ما حاولت إخفاءه" (٢) .

١- المصدر السابق / ١٩١١ .

٢- الفكاهة فى الأدب المصرى الحديث (رسالة دكتوراه) إعداد: د. طاهر عبد اللطيف عوض/ ١٣٩٩هـ، ٦٨٠هـ - ١٩٧٩م .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

كذلك سخر الأدياء من الحاكم المستبد، وسخروا من الشرذمة التي تلتف حوله ونفوسهم تمتلئ بالزهو والغطرسة، وسخروا من المتوطين إلى المستعمر، ومن كل من يلون به من قريب أو من بعيد.

ولعل الامتيازات التي كان الأجانب يحظون بها في الدولة من أكثر الأمور توليدا ودفعا إلى السخرية "فوجود هذه العناصر الأجنبية المسلحة لاستغلال الشعب المصري الأعز، جعل المصري لا يستطيع أن يحاربه إلا بالنكتة والسخرية والتهكم فهو يسخر من عجرفته الجوفاء، وجهله الأعمى، وتسطله الأخرق، وحمقه وشهواته وسوء معاملته وتقديره للشعب"^(١).

ومن الفساد السياسي الذي عانت منه البلاد كذلك: انتشار المحسوبية والتزيف وتغلغل النفوذ الأجنبي في البلاد، واستئثاره بخيرها، بينما لا يبقى لأبناء الشعب المصري سوى فتات ضئيل لا يسمن ولا يغنى من جوع.

كذلك أساء الأجنبي الدخيل معاملة أصحاب البلاد الشرعيين، واختل في يده ميزان العدالة، وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب.

ولقد عاش المصريون هذه المحنة، واصطلوا بناورها، وتشعبت بها نفوس الأدياء منهم "فانطلقت أقلامهم تعلن الرفض في أسلوب أدبي فكاهي، يموج بين التهكم المرير من أفعال المستعمر، والسخرية اللاذعة من الأوضاع المختلفة في البلاد، هادفا من وراء ذلك إلى مناهضة المستعمر، ومحاربه بأسلوب يفهمه الجميع دون حاجة إلى سلاح غير سلاح الكلمة، والعبارة الكاشفة عن آلام الشعب مما حاق به"^(٢).

هذا عن الحالة السياسية السيئة، أما بالنسبة للحالة الاجتماعية، فإن العيوب الكثيرة التي تمخضت عنها الحياة الحديثة، قد دفعت الأدياء إلى الوقوف في وجهها والسخرية منها.

١- الفكاهة في الأدب المصري الحديث (رسالة دكتوراه) إعداد: د. طاهر عبد اللطيف عوض / ٦٩، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. وراجع: الفكاهة في الأدب، د. أحمد الحوفي/ ٥٥.
٢- الفكاهة في الأدب المصري الحديث، د. طاهر عوض/ ٧٣.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وكان من أهم القضايا والموضوعات التي تفتشت في البيئة المصرية: النفاق والرياء، والمداهنة، والتسول، وخرج المرأة إلى ميدان الحياة العملية جنباً إلى جنب مع الرجل، وهوسها بالأزياء الحديثة، والمبالغة في وضع المساحيق على وجهها. كذلك تفتشت موجة الغلاء، وارتفاع الأسعار بصورة شغلت الأذهان وانتشرت كذلك الاختلاسات والمجاملات والرشا.

ومن مظاهر الفساد الأخلاقي: التخنت والميوعة التي بلى بها شباب الأمة المصرية، وانتشار المخدرات بين أبناء الوطن، والاعتراض بالمظاهر الخداعة، وإهمال ذوي الشأن والنباهة. وقد كان هذا الفساد الاجتماعي، وهذه الأمراض الخطيرة تستفز مشاعر الأدباء في كل لحظة، وكانت تدفعهم إلى إشهار سلاح السخرية في وجه المشجعين لها ليس من أجل الإضحاك، ورسم البسمة على الشفاه فحسب، لكن بجانب هذا يهدف إلى الإصلاح، وتقويم العيوب، والعمل على محوها بأسلوب بسيط ساخر خارج عن حد العنف والقسوة^(١).

هكذا ساءت الحالة السياسية، وتبعها سوء الحالة الاجتماعية، وكان لا بد- والحالة كذلك- أن تسوء الحالة الاقتصادية أيضاً فقد "وجد في مصر مجتمع إقطاعي كبير تتحكم فيه فئة أصحاب المصالح، والانتهازيين المغرضين ممن باركهم القصر، وحمى مصالحهم الاستعمار، وساعد على استمرار تلك الأوضاع السيئة أن رجال السياسة وأعضاء الأحزاب شغلوا بما كان بين بعضهم وبعض من منازعات وخصومات، وأغفلوا الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، ولم يهتموا بتحرير أفراد الشعب الكادحين من كابوس الإقطاع بل حرصوا على امتصاص دماء الشعب"^(٢).

وقد زادت شدة الإقطاع وشراسته بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك حين غفل الحكام عن الإصلاح الاقتصادي في البلاد، وشغلوا بمصالحهم الخاصة، والتي تعتبر جزءاً من السياسة الاستعمارية في البلاد، كما أن الطبقة الإقطاعية وأغنياء الدولة هرعوا خلف

١- المصدر السابق/٦٦، وراجع: الفكاهة في الأدب، د. الحوفي/٥٥.
٢- الفكاهة والسخرية بين المازني والبشرى (ماجستير) إعداد/إبراهيم محمد قاسم /٧، القاهرة ١٩٧٨م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الاستعمار، وتقلدوه، فى مفاصده، وإهداره؛ الأموال على الميزات والشهوات، بينما ظلت الطبقة الفقيرة تعاني من شظف العيش، وتسوؤة الحياة وقلة الدخل، وانتشار الجهل والمرض وبياعت من كل هذه الضغوط راح الأدباء ينفسون عن أنفسهم بالنكتة والدعابة والتهكم، والسخرية من كل ما يحيط بهم، ويفسد عليهم حياتهم.

هذا، وتضيف الدكتورة "نعمات أحمد فؤاد" باعثة آخر من بواعث السخرية فى الشعر الحديث، وهو ما يغشى نفس صاحبه من قلق، وما يساوره من شك وما يرهقه من ظمأ، ويمضه من جذب مادي وجذب معنوي^(١).

ولعل القلق والشك الذى ينتاب الأدباء تبعاً لظروف الحياة المتقلبة، هو ما يقود فى نفوسهم شرارة السخرية والتهكم على مر العصور.

وبعد، فهذه أهم دوافع السخرية وبواعثها، ويمكن أن يضاف إلى هذه الدوافع ما قد يوجد فى حياة بعض الأشخاص من أحداث خاصة، أو تأثر بالثقافات المختلفة، أو غير ذلك من المؤثرات.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن الأديب الساخر فى كل تلك المواقف، ينبغى أن يكون ذا ربح فكهة مرحة، وأن يكون موصولاً بالدعابة بسبب، وأن تكون السخرية طبيعة فى نفسه؛ لأن (الفكاهة أو السخرية صفتان لا تكتسبان، ولا يبرزن فى الإنسان إلا إذا كان هناك طبع موات، وموهبة فطرية فى هذا المجال)^(٢).

ألفاظ السخرية:

عندما ندقق النظر فى الألفاظ أو المتردفات العربية التى تدل على السخرية أو التهوين من شأن الآخر، أو الحط من قدره، سوف نجد مجموعة من الألفاظ تمثل هذا المقام، علماً بأن المعاجم العربية لا تكاد تفرق بين مدلولات بعض هذه الكلمات تفريقاً قاطعاً، بينما أشارت - فى القليل النادر - إلى ما قد يوجد بين بعضها من تشابه أو اتفاق فى المعنى.

١- راجع: خصائص الشعر المصرى الحديث/٥١، ط/دار الفكر العربى ١٩٨٠م.
٢- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد ٣٥٦/١٤، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- وهذه الألفاظ هي: السخرية، والتهكم، والهزء، والتندر، والاستخفاف والمداعبة والتعريض، والضحك.
- فأما السخرية، فهي مأخوذة من الفعل (سخر)، وأصل التسخير في اللغة: التذليل، وقد جاء في لسان العرب: سخرته: أي: قهرته ونلته، وسخره: تسخيرا: كلفه أن يعمل عملا بلا أجر، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فهو "مسخر" (١).
- فالمادة توحى باللين والخفاء، وعدم الإفصاح عن المراد بطريقة مباشرة "ففي السخرية لين أشبه بلين الأفاعي، والساخر أفعى ليس له صوت حين يسير أو حين يسخر ولكنه يقتل بسخريته" (٢).
- وأما التهكم، فقد جاء في لسان العرب: هو السيل الذي لا يطاق، والتهكم: تهور البئر، وتهكمت البئر: تهدمت، وهكمت غيرى تهكما غنيته، وذلك إذا انبريت تغنى له بصوت (على سبيل التهكم والسخرية).
- والتهكم: الاستهزاء، وفي حديث أسامة: فخرجت في أثر رجل منهم جعل يتهم بي، أي: يستهزئ ويستخف.
- والتهكم: المتقحم على ما لا يعنيه الذي يتعرض للناس بشره، وقد تهكم على الأمر وتهكم بنا: زى علينا وعبث بنا، والتهكم: التكبر، والتهكم: المتكبر (٣).
- إذن فالتهكم: استهزاء في قوة، وفي تقحهم، وعدم خفاء (٤).
- وهنا يظهر لنا الفرق بين السخرية والتهكم، فالسخرية: نقد هادئ خفي أشبه ما يكون بالمخدر، والتهكم: هجوم في قوة وعنف بغير ما رحمة ولا شفقة.

١- لسان العرب، ج٤/٣٥٢ مادة (سخر).
٢- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/١٣.
٣- انظر: لسان العرب، ج١٢/٦١٧ مادة "هكم".
٤- راجع: السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/١١.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- والفرق بين الهجاء والتهكم ، هو أن الهجاء صادر عن نفس واجدة غاضبة حاقدة بينما التهكم صادر عن نفس ساخرة ناقدة، مبرأة من الحقد والموجدة^(١) .
- والهزء: السخرية، وهزأ الشيء يهزؤه؛ هزأ: كسره، وهزأ الرجل: مات، وهزأ الرجل إبله هزأ: قتلها بالبرد، وهزأت الراحلة: حركتها.
- والأفصح في الفعل هنا أن يتعدى بالباء، فيقال: هزئت به، ولا يقال: هزئت منه^(٢) .
ففي المادة – كما نلاحظ – تحريك، وقتل بارد لين من غير عنف أو صوت أو تكسير^(٣) .
- ويفرق أبو هلال العسكري بين الاستهزاء والسخرية، فيذكر أن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله، والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه^(٤) .
- وعليه، فلا بد أن تدل نغمة الصوت في الاستهزاء على أن شخصا معيناً يهاجم شخصا آخر، أو ينتقده، أو يوجه إليه تعليقا ساخرا^(٥) .
- وبذلك يظهر أن الهزء لفظ من ألفاظ السخرية، وهو يمتاز باللين والرخاوة حيث يتسلل في لباقة وسهولة حتى يصيب الشخص المقصود في مقتل.
- وأما مادة "تندر" فهي من الفعل "ندر" ، تقول: ندر الشيء يندر ندورا: سقط وقيل: سقط وثنذ، وقيل: سقط من جوف شئ أو من أشياء فظهر^(٦) .
- وتنادر على فلان: سخر منه^(٦) .

١- انظر: الفكاهة في الأدب، د. الحوفي/٧٢ .
٢- انظر: لسان العرب ، ج١/ ١٨٣، مادة "هزأ".
٣- راجع: السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/١١ .
٤- راجع: الفروق اللغوية، تحقيق: حسام الدين القنسي/٢١١، مكتبة القدس للطبع والنشر والتوزيع ١٩٩٤م.
٥- انظر: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٥٢ .
٦- انظر: لسان العرب، ج١/ ١٩٩، مادة "ندر" .
٦- انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة/٦٠٨، مادة "ندر"، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

"والظاهر أن الكلمة أخذت من أصل المادة "ندر"، وفيها محاولة الإسقاط أو إظهار العيوب بطريقة ملتوية ، فيها تباله وتجاهل وإظهار نواير الشخص الذي يتندر منه وشدوذه" (١) .

فالتندر إذن هو نوع من الهجاء الذي لا يصدر فيه الشاعر غالبا عن حقد أو سخط وإنما يعتمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره في صورة هزئية على سبيل التندر والدعابة والظرف (٢) .

وقد يكون تندر الشخص من نفسه أبعث على الإضحاك من تندر غيره؛ به لأنه صار مبعثا مضاعفا للضحك، حتى لكأنه الضحك نفسه .

وبديهى أن الشخص الذي يتندر بنفسه، شخص فكه لبق خفيف الريح سريع الخاطر، وهو إلى ذلك بعيد النظر، يتفكه بنفسه قبل أن يتفكه الناس به (٣) .

• ومن ألفاظ السخرية: "الاستخفاف" وهو مأخوذ من الفعل خف، والخفة ضد الثقل والرجوح، ويكون في الجسم والعقل والعمل، واستخف فلانا: رآه خفيفا واستخف فلانا: أهانه، واستخف به: استهان به وأخفنى الشيء: إذا أغضبك حتى حملك على الطيش، واستخفه فلان: إذا استجهله فحمله على اتباعه في غيه، ومنه قوله - تعالى - :

• "فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ" (٤) .

• أي: حملهم على الخفة والجهل (٥) فمادة الاستخفاف تدور حول الخفة والاستهانة بعقل الشخص المتهمك به أو المسخور منه .
• ويلاحظ أن "الاستخفاف" فيه استجهال وإنكار لعقل المتهمك منه .

١- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/ ١١ .

٢- راجع: الهجاء في الأدب الأنلسي، د. فوزى عيسى/ ١٨٧، دار المعارف "بدون تاريخ".

٣- انظر: الفكاهة في الأدب، د. الحوفي ج/ ١٠٣/١ .

٤- سورة الزخرف، من الآية: ٥٤ .

٥- لسان العرب، ج ٧٩/٩، ٨٠، والمعجم الوجيز/ ٢٠٥ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- ومن ألفاظ السخرية "التعريض".

والتعريض: خلاف التصريح، جاء في لسان العرب: عرض لى بالشيء: لم يبينه وتعرض: تعوج، يقال: تعرض الجمل في الجبل، أي: أخذ منه في عرض فاحتاج أن يأخذ يميناً وشمالاً لصعوبة الطريق، وعرض لفلان وبه: إذا قال فيه قولاً وهو يعيبه، والمعارض من الكلام: التورية عن الشيء بالشيء، أو ما عرض به ولم يصرح، والتعريض في خطبة المرأة: أن يتكلم بكلام يشبه خطبتها ولا يصرح به^(١).

فالمادة – كما نرى – توحى بالسخرية أو التهكم من الغير بطريق خفي مبهم لا يفهم من معنى الكلام القريب، وإنما يلمح من معناه البعيد.

- يقول الدكتور أحمد الحوفي: "نريد بالتعريض أن ينطق المتكلم بكلام لا يريد به معناه في ذاته، وإنما يشير به إلى معنى بعيد يفهمه السامع، وليس بين المعنيين تلازم كما في الكناية، أو دليل على المعنى القريب يخدم عن المعنى البعيد كما في التورية"^(٢).
- والتعريض على ذلك لون من الكلام يسلك المتكلم فيه مسلك التلويح بما يريد مع امتزج ذلك بالظرف، وخفة الروح، والحيلة المضحكة.

- ومن ألفاظ السخرية – كذلك – الضحك.

والضحك معروف كما جاء في لسان العرب، فهو من ضحك يضحك ضحكا وضحكا وضحكا وضحكا أربع لغات.

والضحك: ظهور الثنايا من الفرح، والضحك: العجب، وهو قريب مما تقدم^(٣).

- ويذكر بعض النقاد أن الذي يستدعى الضحك منا: هو أن الحياة مملأى بالمشقات والمتاعب والآلام، والضحك هو المتنفس الذي يخفف ضغطها وينسى همومها ويلقى بعض أنقالها، ويحرر من قيودها الثقال زمناً يطول أو يقصر.

١- لسان العرب، ج٧/١٨٢، ١٨٣.

٢- الفكاهة في الأدب، ج٢/٥١.

٣- لسان العرب، ج١٠/٤٥٩.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومن هنا كان الضحك نزعة إنسانية غريزية لها قيمة عظيمة فى حفظ حياة الفرد وحياة المجموع.

وقد تطورت هذه النزعة من ضحك تثيره أمور عارضة إلى ضحك تثيره أمور مقصودة معدة^(١).

ويبدو أن صور الضحك ومنابعه كثيرة ومتعددة، فالضحك داخل فى كل صورة من الصور السابقة؛ لأن الناس يضحكون ضحك سخرية، ويضحكون ضحك تهكم، أو ضحك هزن، أو ضحك ازدراء، أو ضحك تعريض، أو ضحك دعاية^(٢).

وأيا ما كان الأمر، فالناس يضحكون لأن الضحك "يريح أعصابهم، ويشرح صدورهم ويقوم أخلاقهم، ويشعرهم بشيء من الصلة فيما بينهم، ويجعلهم يحافظون على تقاليدهم وأوضاع مجتمعتهم، ويربى فيهم ملكة النقد، ويوقظ فيهم التنبه إلى أخطائهم وأغلاطهم"^(٣)

• ومن ألفاظ السخرية: الدعاية.

والدعاية هى المزح، وهى اسم من الفعل: داعبه مداعبة، والمداعبة: الممازحة وفى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام كان فيه دعاية، حكاه ابن الأثير فى النهاية والدعاية: اللعب، والدعاية: نملة سوناء، وتدعبت عليه: تدللت عليه^(٤).

فأصل المادة يوحى بالخفة والبساطة وعدم التعقيد.

- ولذا عرفها بعض النقاد بأنها نوع من التهكم الخفيف غير المؤني^(٥).
- وعرفها آخر بأنها: القدرة الخاصة على استثارة الضحك أو الابتسام لدى الآخرين من خلال بعض الملاحظات أو التعليقات التى تكشف رشاقة فى التعبير، وبراعة

١- راجع: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج ١/ ٥٠.

٢- راجع: الفكاهة فى مصر، د. شوقي ضيف/ ١٧.

٣- المصدر السابق/ ١٦.

٤- لسان العرب، ج ١/ ٣٧٥، ٣٧٦، مادة "دعب"، وانظر: فى دعابته صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة فى كتاب: "أدب الدنيا والدين" لأبى الحسن الماوردى، ت/ مصطفى السقا/ ٣٠١، الطبعة الخامسة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٩٨٦م.

٥- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي/ ١١٥.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وسرعة في الإدراك للمتناقضات، والجمع بينها في تعبيرات الابتسام والضحك^(١) ويقول عنها الدكتور شوقي ضيف: الدعابة أخف ألوان الفكاهة، وهي فكاهة الأشخاص الوقورين، إذ يقولون ما يدعو إلى الابتسام الخفيف، لا إلى الضحك العالي^(٢).

والأصدقاء حين يتداعبون ويتضحكون فإنهم "يتخبرون بعض جوانب الضعف في أصدقائهم، فيتندررون بها، أو يتخذون خصلة اشتهر بها الصديق ملائمة للدعابة فيسخررون بها تضخيماً أو قلباً أو عكساً، أو يعمدون إلى شئ يعتز الصديق بامتلاكه، وليس في نظرهم جديراً بهذه العززة، فيجعلونه مادة لتندرهم، ويبالغون في إعزاز الصديق لما يمتلك".
وإذا كان الغرض هو الدعابة، فإنها تحتاج إلى مهارة في التعبير والتصوير بحيث لا تؤذي الصديق، ولا تغض من قدره.

وقد يبدو في بعضها ما يشبه الإيلام، ولكنه عند النظرة الفاحصة، يظهر أنه من مزاحات الأصدقاء الذين لا كلفة بينهم^(٣).

المزاح:

يأتى المزاح بعد الدعابة، وهو الدعابة- كما في لسان العرب -، وهو نقيض الجد ونقل شارح القاموس أن المزاح: المباشطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف دون أذية^(٤)
لذا عرفه الدكتور شوقي ضيف بقوله: المزاح خطوة بعد الدعابة نحو الضحك أو نحو الابتسامة العريضة، وهو لا يحمل خبتاً ولا سما، وإنما يحمل المرح والشعور بالابتهاج^(٥).
وعليه، فالدعابة ابتسام في وقار وتحفظ، بينما المزاح ابتسام في تجرؤ وإصرار.

١- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/ ٥٤ .

٢- الفكاهة في مصر/ ١٤ .

٣- الفكاهة في الأدب، د. الحوفي، ج ١/ ١٣١ بتصرف يسير. وانظر: السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال/ ٢٢.

٤- لسان العرب، ج ٢/ ٥٩٣، مادة "مزح".

٥- الفكاهة في مصر/ ١٤ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الهزل:

من ألفاظ السخرية الهزل، وهو نقيض الجد، من الفعل: هزل يهزل هزلا وهزل الرجل في الأمر: لم يجد فيه، وقول هزل: هذاء، وفي التنزيل: "وما هو بالهزل" (١) قال ثعلب: أي، ليس بهزيان، وفي التهذيب: أي، ما هو باللعب، وقال ابن الأعرابي: الهزل: استرخاء الكلام وتفنيته (٢).

وقد عرفه بعض النقاد بأنه: مبالغة الشخص في مغالطاته دون أن يعتمد على شخص آخر يجري عليه هذه المغالطات، واستغراقه في ذلك حتى يخرج إلى حيث لا منطقية خالصة (٣).

فالإنسان الهازل يتكلم بصورة من ألقى عقله ومنطقيته، وسار يتخبط يمينا وشمالا، فتره يسوق بدهيات في صورة معلومات خطيرة، أو يخلط في كلامه، وكأنه غافل أو نائم وكتاب "نزهة النفوس ومضحك العيوس" لابن سودون المملوكي (٤) خير مثال على ذلك.

- وقد دافع البعض عن الهزل، زعمين أن من لم يعرف الهزل لم يعرف الجد وأن النفس إن لم تذوق فرح الهزل أصابها غم الجد وكربه، فللهزل أثره الإيجابي في صحة النفس، وجودة العقل، وصفاء الذهن، وغزارة الفكر، فالهزل غذاء ودواء (٥).
- وقد فرق السكاكي بين المزح والهزل بقوله: "إن الهزل يقتضى تواضع الهازل لمن يهزل بين يديه، والمزح لا يقتضى ذلك، ألا ترى أن الملك يمازح خدمه وإن لم يتواضع لهم تواضع الهازل لمن يهزل بين يديه" (٦).

١- سورة الطارق، آية ١٤ .

٢- لسان العرب، ج ١١/ ٦٩٦ .

٣- الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف/ ١٤ .

٤- هو نور الدين أبو الحسن علي بن سودون، ولد في القاهرة سنة ٨١٠هـ، ونشأ بها، ثم برع في الأدب، وكان غاية في

المجون والهزل، وتوفي بدمشق في رجب سنة ٨٦٨هـ (الأعلام، ج ١٠٥/٥).

٥- راجع الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/ ٢٧٩، ٢٨٠ .

٦- الفروق اللغوية/ ٢١١ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ويعد، فهذه هي أهم ألفاظ السخرية في اللغة العربية، وهي الأكثر شيوعاً على ألسنة الأدباء والشعراء، وإن كنا نلاحظ من خلال ما تقدم أمرين:

- **الأول:** أن المعاجم العربية لم تشر إلى فروق واضحة مميزة لمعنى كل من السخرية والتهكم، والاستهزاء، حيث جاء كل لفظ منها بمعنى الآخر، وقد حاولت - قدر استطاعتي - إيجاد نوع من التمييز بين معاني هذه الكلمات معتمداً في ذلك على بعض الشذرات اليسيرة التي قد توحى بها حروف الكلمة ومعاني مفرداتها المختلفة.

فالسخرية - مثلاً - نقد في هدوء وسهولة وعموض، والتهكم: نقد وهدم في تهجم وفجاجة وعدم خفاء، والاستهزاء: فيه تحريك ونقد من غير عنف ومن غير تكسير.

والأمر الثاني: أن لفظ "السخرية" هو أقرب الألفاظ وألصقها صلة بموضوع البحث؛ لأن من معاني السخرية "التذليل" والأديب الساحر يحاول ما استطاع أن يخضع خصمه لسلطانه، حتى يتثنى له أن يشفى صدره، منه، وأن ينتقم منه بسلاح السخرية؛ انتصاراً لنفسه المتعبة المكيدة.

وكذلك فإن من حروف المبنى في كلمة "السخرية" السين، والخاء، وهما يدلان على اللين والطلاوة والخبث والدهاء، وهو ما يتفق مع المعنى العام للكلمة ومع المقصود منها.

أهداف السخرية ومقاصدها:

- السخرية فن أدبي رفيع، له أهداف ومقاصد يحاول - بشتى الوسائل - أن يحققها، وهذه الأهداف والمقاصد تتفرع وتتشعب، وإن كانت كلها في النهاية تومئ إلى غاية واحدة، وإلى مقصد إنساني عام.
- وقد أشار بعض النقاد والباحثين إلى بعض الأهداف والغايات التي يتغياها فن السخرية، ويحاول تحقيقها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ولعل من أهم هذه الأهراف والمقاصر ما يلي: (١) الرغبة في إصلاح المجتمع وتطويره:

- إصلاح المجتمع ، والعمل على تطويره أمر مهم، وقد حمل فن السخرية منذ بداياته الأولى هذه الغاية على عاتقه، فهو يهدف فيما يهدف إلى "إصلاح المجتمع وتطويره من خلال إثارة الضحكات أو الابتسامات على أقل تقدير وذلك باستخدام أية أداة متاحة" (١) .

هذا، ومن المعروف أن "السخرية تملك من المرونة ما يجعلها قادرة على استخدام أى شكل من الأشكال الأدبية بل والفنية ، فهي يمكن أن تتروح بين قمة الجدية، وتماع الهزل من خلال أساليب وزايا لا تحصى" (٢) .

فالسخرية حرب على كل المظاهر المخالفة للتطور فى المجتمع، فهي تهدف كما يقال الدكتور حامد الهوال إلى "تطهير الحياة والمجتمع من الظواهر السلبية التى تجانب التطور، وتناهض الحركة نحو المستقبل، فإذا ما وقعت على إحدى هذه الظواهر كالبلادة أو الخمول أو الغفلة، أو كل ما يهدد الحياة بالتوقف أو البطء أو كل ما تحس أن فيه إعراضاً عن الحياة، أو عجزاً عن التلاؤم معها، أخذت نفسها ضده، وجمعت أسلحتها لتنقض عليه، إذا لم يكن بد من أن تكون قاسية معه" (٣) .

- وفى إطار العمل على إصلاح المجتمع، قد تهدف السخرية إلى "تقويم الحكام وهدايتهم سواء السبيل، أو تقويم المجتمع وعلاج أمراضه، أو الثأر من الأقوياء والجبارين ؛ لأن الناس لا يستطيعون - أحياناً - أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/ ١٩٠ .
٢- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/ ١٩٠ والجمع بين حرفى العطف(بل، والواو) الوارد فى هذا النص خطأ لغوي، والصواب: عدم ذكر الواو .
٣- السخرية فى أدب المازنى / ٣٠٠ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الجدى؛ مخافة البطش أو التنكيل والعقاب، فيلجئون إلى أسلوب السخرية؛ لأنه مأمون العقاب" (١).

والحق أن السخرية في إطار إصلاح المجتمع، تتسع حلقاتها ومستوياتها حتى تشمل المستوى السياسي، والمستوى الاجتماعي، والمستوى الأخلاقي، والمستوى الجمالي. وهي في خوضها هذه المجالات تختلف في لهجتها ومنهجها عن كل أساليب التعبير الأخرى التي تهدف إلى الرفض أو الشجب أو التقليل من شأن الموضوع المطروح لسهام الكاتب أو المتحدث (٢).

فهى تعنى "إنزل نوع من العقاب على كل من تغاير طبيعته طبيعة المجتمع وواقع الحياة" (٣).

لأنها في الأصل "بمثابة عقاب وقصاص وتأديب ينتقم بها المجتمع ممن يتناولون على منطقته ومعقوله" (٤).

والسخرية بذلك تعد مرآة لحالة المجتمع، والأدباء الساخرين هم لسان الأمة الناطق الساخر من عيوبها التي تترجح الأمة تحتها.

٢. نقد الواقع المتردى:

الواقع الذى يعيشه الإنسان ويألفه، هو عبارة عن منظومة تجمع تجاربه في الماضي، ولذا فإن أى اعتداء على هذا الواقع يحدث ألماً في نفس الإنسان الحساس فيحاول أن يتصدى لمصدر هذا الاعتداء بالنقد والسخرية، والإنسان عندما يفعل ذلك "فإنه يأبى على الحياة أن تعود إلى الوراء، أو تقف عن التقدم، فيتجمد معها الأحياء، إنه يحس بالخطأ الذى يقع فيه التناقض فيواجهه بالضحك عليه والسخرية منه، ويتخذ من ذلك مادته

١- الفكاهة في الأدب، د. الحوفي ج ٩٣/٢.

٢- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/ ١٣.

٣- السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال/ ١٩.

٤- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/ ٢٣، وكلمة: "مثابة" الواردة في النص خطأ لغوي، والصواب "بمنزلة"

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

لنقده، وقد يكون نقدا لانعما، ولكنه بخفته الساخرة قادر على ألا يثير رد فعل مضاد، فينتصر الإنسان على التناقض، ويقضى على الخطأ"^(١).

ومع ذلك فقد يتعمد الأديب الساخر "أن يوقع بعض الأشخاص أو الجماعات أو بعض الأنظمة السياسية والاجتماعية في حرج مقصود، ولكن ليدفع بذلك حرجا أكبر عن الجماهير، ويرد خطرا قائما على المجتمع أو متوقعا، مما يعتبر عملا إنسانيا شريفا وساميا"^(٢).

وهنا يبدو لنا بوضوح ما يقوم به فن السخرية من نقد للواقع، وذلك عندما يقوم بمهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير، وبالطبع فإن هذا الوضع الراهن لابد من أن يكون محصلة لممارسات عدة خاطئة سابقة، مما يندرج بأخطار ينبغي التحذير منها، ويكون الأدب الساخر أو الفن الساخر عموما إحدى علامات هذا التحذير"^(٣).

• ولذلك يشير الدكتور نعمان طه إلى أن غرض الساخر من سخريته: هو النقد أولا والإضحاك ثانيا"^(٤).

وايست بالضرورة كل سخرية تكون مثيرة للضحك؛ لأنها يمكن أن تكون مرة وذلك عندما تهاجم الجانب المتجهم من المجتمع، وربما أثارت ابتسامة المتلقي لكنها ابتسامة مريرة ساخرة من الأوضاع المقلوبة في المجتمع"^(٥).

فنقد الواقع بما فيه من سلبيات وأخلاقيات مخالفة للنظام السائد في المجتمع هدف من أهداف السخرية التي تهدف إليها، وذلك في إطار الرغبة الأكيدة في خلق مجتمع مثالي فاضل.

١- السخرية في أدب المازني/٣١ •

٢- المصدر السابق/٨.

٣- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاعر عبد الحميد/٥٢ •

٤- السخرية في الأدب العربي/١٤.

٥- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢١ •

٣. الإضحاك:

تهدف السخرية - فيما تهدف - إلى إثارة جو من الضحك والبهجة في الأسلوب مما يؤكد على دورها في تجديد النشاط النفسي، والترريح الجماعي، ونشر التفاؤل بالمستقبل . وهذا الضحك ليس فوضى كما قد يتخيل بعض الناس ، ولكنه ضحك بنظام وهدف، لذلك يمكننا " أن نعتبر ذلك في الواقع أسلوبا مجديا من أساليب السخرية أو فنا من فنونها ذات القدرة العجيبة" (١) .

ولعل الارتباط القائم بين البهجة (الضحك) والسخرية والارتباك مما يؤكد ذلك ويدعمه (٢) .

والواقع أن "السخرية تعمل بذكاء لتحويل الشيء أو المنظر الذي ترصده إلى صورة دميمة، لتسقطه في النهاية من عالم المثل، ومن حسابات الجمال الذي قد يكون في كثير من الأحيان واقعا تحت وهم الاتصاف بها، فيبدو مثيرا للضحك" (٣) .

- ومما تجدر الإشارة إليه، أن نذكر أن "السخرية ليست بالضرورة مثيرة للضحك؛ لأنها يمكن أن تكون مرة ، خاصة عندما تهاجم الجانب المتجهم من المجتمع، وربما أثارت ابتسامة المتلقى ، لكنها ابتسامة مريرة ساخرة من الأوضاع المقلوبة للمجتمع ، وهذا ليس أمرا غريبا، فليست كل ابتسامة تعنى السعادة والانشراح" (٤) .

وليس كل شاعر بمستطيع أن يثير ضحكات الجماهير؛ لأن "أسلوب الإضحاك يحتاج إلى مهارة فائقة من الشاعر، وبراعة غير معتادة في فهم نفسية المهجو (المسخور منه) ، وما يتفق مع صورته من ألفاظ تساعد على إبراز ما يرمى إليه" (٥) .

١- السخرية في أدب المازني ، د. حامد الهوال/ ٣٦ .

٢- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/ ١٩ .

٣- السخرية في أدب المازني/ ٣٦ .

٤- الأدب الساخر/ ٢١ .

٥- الهجاء الجاهلي صورة وأساليبه الفنية، د. عباس عجلان/ ٣٢٢، ط/دار المعارف ١٩٨٢م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

إذن، فالإضحاح عنصر من العناصر التي تهدف إليها السخرية، ولكنه الإضحاح الهادف المفد الذم، بنى ولا يهدم.

مقومات السخرية:

- ليست السخرية أمراً سهلاً يرتاده كل راغب، ولكنها فن شائك يحتاج إلى خبرة ودراية بظروف الحياة وأحوال الناس فيها، إذ لا بد أن تتوفر في الساخر صفات ومقومات هي له بمثابة الأجنحة التي تمكنه من الطيران في أجواء السخرية والتحكم بحرية وطلاقة.

ويمكننا أن نشير باختصار شديد إلى أهم هذه المقومات فيما يلي:

١. المجانة وقلة المبالاة:

- المجانة: معناها ألا يبالي الإنسان بما صنع ولا بما قيل له^(١).
- ونحن عندما ننظر إلى السخرية، نجد أنها ترتبط في جوهرها بالمجانة وقلة الاستحياء، وعدم المبالاة.
- فالأديب الساخر ينبغي أن تنطوى نفسه على شئ من المجانة، حتى لو لم يكن ذلك معروفاً عنه في الظاهر، لأنه لو لم يكن ماجناً، أو لم تتوفر لديه عناصر اللامبالاة، لما استطاع أن يلج فن السخرية، أو يرمى فيه بسهم، ولما استطاع أن يوفر للسامع عناصر الإضحاح والتندر الذي يريده بالغير.

"ولقد عد" أدلر" المجانة - حين محاولته تحليل العواطف إلى الانفعالات البسيطة التي تتركب منها - عاطفة تتركب من: الزهو، والمنافسة، والغرير والاعتداء، فقال: المجانة أساسها - على الأرجح - الانفعال المسمى بالزهو مقترنا بالاعتداد بالذات، ولا نزاع في أننا نحس أننا أسمى من الشخص الذي يثير فينا المجون، وإن كان عنصر الدهش أيضاً عاملاً من العوامل التي تبعث على الضحك والمزح، كما تنطوى المجانة على عنصر المنافسة

١- لسان العرب، ج ٤٠٠/١٣، ص ٤٠٠.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وأدخل ما تكون النكتة الطيبة على مشاعرنا حين نتغلب على أصحابنا، ونتفوق بها على أهل مودتنا" (١).

فالزهو والاعتداد بالنفس ينبعان من قوة الأعصاب، وقوة الأعصاب أمر ضروري ينبغي أن يكون متوفراً في الأديب الساخر حتى يكون بمنأى عن الانفعال والتوتر، لأن الانفعال والتوتر ينافيان اللامبالاة.

ولذلك تحاول السخرية "أن تتخلص من الانفعال في الظاهر، فتبدو كأنها لا تنبعث عن عاطفة ما عند قائلها، لأنها تخاطب العقل، وتسعى إلى أن يكون الجوهراً مشبعاً بالإدراك والوعي، حتى تستطيع أن تثير الضحك السريع، لتسلط ضوءاً أكثر سرعة على الأشياء التي لا تناسب الحياة، والتي يمكن أن نصفها بأنها لا تليق بالفرد أو الجماعة، وهي عندما تسلط هذا الضوء السريع تخدم فكرة عميقة ولكنها تريد أن تكون عابرة، حتى يمضي كل شيء في خفة ونشاط" (٢).

٢. الذكاء والدهاء:

• الذكاء: هو حدة الفؤاد وسرعة الفطنة، والدهاء: هو جودة الرأي والبصر بالأمر (٣) وهما من الأمور التي ينبغي توفرهما في الأديب الساخر، إذ "لا بد له من أن يكون على قدر كبير من الذكاء، وقوة المخيلة، أو الخيال الهازل الذي يمكنه من اقتناص أو ابتداء الصور النادرة التي يستطيع بها إغاضة خصمه من جهة، وإضحاك نفسه والناس منه من جهة أخرى" (٤).

فالسخرية تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر والدهاء، لأنها أداة راقية ويحتاج العمل بها إلى جهد كبير (٥)، ولولا اشتغالها على ذلك، لما كانت مثاراً للضحك.

١- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/ ١٩٠.

٢- السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال/ ١٦، ١٧.

٣- ينظر: لسان العرب، ج ١٤/ ٢٨٧، ٢٧٥.

٤- السخرية في الأدب العربي/ ١٩٠.

٥- راجع الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف/ ١٣٠.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

هذا، ونكاء الإنسان الساخر ودهاؤ، يكمن في خبرته بالمجتمع، ودرايته بأحواله ومعرفته بكل تطوراته، وتسجيله السريع لكل المواقف والمشاهدات التي تعد شذوذاً على نظام المجتمع في ذكاء وحسن تصوير، ثم توجيه النقد إليها في خفة وسرعة وخفاء ودهاء. "والإنسان الساخر إنسان نشيط وعبقري، ومعتز بحياته، وأخ للأحياء أمثاله، وهذا الانتماء الواعي يكسبه قوة كبيرة، وقدرة خلاقية على منح الحياة كل اهتماماته، وكل إمكانياته على النقد والمعارضة والمقاومة والكفاح، فهو إنسان ثوري التكوين في الواقع وإن لم يستخدم أسلحة الحرب التقليدية المعروفة، فإن سلاحه الموهبة والقدرة الغالبة على مواجهة النقائص والنقائص، والتعرف على عناصر الانحراف فيها، وعلى صياغة الأساليب المناسبة لكشفها وإبرازها ووضعها في الضوء العام لتكون هدفاً لأكثر من عين ونقطة التقاء كل اهتمام" (١) .

والإنسان الساخر إذا قل نصيبه من الذكاء والدهاء، قل نصيبه من قوة الحجة والدفاع عن النفس أمام الغير، وبذلك يشعر بكثير من الضيق والألم والاشمئز.

٣. الجلد وقوة النفس:

الجلد: هو القوة والشدة والصبر والصلابة (٢) .

والجلد وقوة النفس مقوم مهم من مقومات السخرية، وهو يعنى: امتلاك الإنسان لنفسه عند الغضب، أو عند إغاضة الغير له بأى شكل من الأشكال، وبذلك يتعالى الإنسان ويترفع عن مواقف الضعف الإنساني الذي يعتري غيره؛ من الناس فيندفع إلى السب أو الضرب أو الدخول في معركة بالأيدى والأرجل، وهذه "طريقة بدائية بسيطة تشعر وتدل على انهيار الشخص النفسى لما حدث له من خصمه، أما الساخر الجلد - الذى يملك نفسه

١- السخرية في أدب المازني/٣٢- ٣٢ .

٢- لسان العرب، ج٣/١٢٥ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

عند الغضب كما قال الحديث الشريف – (١) فيضحك منه لإشعاره بأنه أقل من أن يفعل به ما يسبب إيلامه.

ولذلك تمدح العرب قديما بالتجلد كما قال الشاعر:

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعع (٢)

ولذلك وصلت قوة أعصاب "برناردشو" وكبرياؤه إلى أنه كان يتحدى الموت وأنه كان يقول: لن أموت قبل أن أبلغ المائة من عمري! ظنا منه أن بسلامة أعصابه – التي كان يربحها أولا فأولا بالتنفيس عن نفسه بسلاحه الرهيب، وهو السخرية – يستطيع أن يحتفظ بصحته وينشأه حتى يبلغ من عمره المائة عام (٣).

من هنا ندرك أن الجلد وقوة الأعصاب، من المقومات الضرورية في شخصية الإنسان الساخر، لأن استخدامه سلاح السخرية يقتضى منه ذلك، وإلا استوى مع غيره، من الذين يستخدمون الأسلحة البدائية من مثل السب أو الضرب بالأيدي والأرجل.

٤. الميل الفطري إلى الدعابة والمرح:

الدعابة والمرح من الصفات الأساسية التي ينبغى أن يتحلى بها الأديب الساخر وهي نوع من الظرف والذكاء البارع الذى يجعل الأديب الساخر ذا قدرة بارعة على استئثار الضحك أو الابتسام لدى الآخرين، من خلال بعض الملاحظات أو التعليقات التى تكشف رشاقة فى التعبير، وبراعة وسرعة فى الإدراك للمتناقضات، والجمع بينها فى تعبيرات تثير الابتسام والضحك (٤).

١- ينظر الحديث فى صحيح مسلم، شرح النووي، ج١٦/١٦١، ط/دار الريان للتراث ١٩٨٧م.
٢- انظر: شرح المفضليات، للتبريزي، ت: محمد على البجاوى، القسم الثالث- ص ١٤٠٨، دار نهضة مصر للطباعة والنشر بالقاهرة، والبيت لأبى ذؤيب الهذلى "الكامل التام".
٣- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/٢٠٠٠.
٤- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكى عبد الحميد/٥٤٠.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

والاتصاف بالدعابة والمرح ليس من الأمور التي يسهل على الإنسان أن يتصف بها؛ لأنها من الأمور الفطرية التي يولد الإنسان مجبولاً عليها، فيتحقق له بذلك أن يكون ساخرًا حقيقياً؛ لأن "الفكاهة والسخرية صفتان لا تكتسبان ولا يبرزن في الإنسان إلا إذا كان هناك طبع موات، وموهبة فطرية في هذا المجال" (١).

هكذا ينبغي للأديب الساخر أن يكون مطبوعاً على الدعابة والمرح، والفكاهة والسخرية منذ نعومة أظفاره، إلى جانب ما سبق من مقومات لفن السخرية. ولقد كان المصريون - وما زالوا - من أكثر الشعوب ميلاً إلى الفكاهة والتندر والضحك، وخاصة فيما يتصل بالنكت وخفة الروح (٢).

لذا يقول "ثيوكريتاس" الشاعر اليوناني الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد واصفاً المصريين: إنهم شعب ماكر، لاذع القول، رويحه مرحة (٣). فالقول اللاذع هو السخرية من الأوضاع المقلوبة، وهي مبنية على المكر والدهاء وكلاهما ينبغي أن يكون ممزوجاً بالمرح والدعابة والابتسام.

"ولاشك أن عناصر الفكاهة والمرح والسخرية والتهكم في الشخصية المصرية دليل على الذكاء واللمامية، ورهافة الحس، والشعور والذوق، وسرعة البديهة وحضور الذهن والقدرة على اللعب بالألفاظ، واستخراج ما فيها من معانٍ ماكرة وأفكار خبيثة عن طريق التورية" (٤).

وبعد، فهذه هي أهم المقومات التي ينبغي للأديب الساخر أن يكون مطبوعاً عليها حتى يكون ساخرًا حقيقياً تنقاد له الأذان.

١- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد ٣٥٦/١٤ .

٢- راجع: الفكاهة في مصر/ ١٧ .

٣- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/ ١٠٥ .

٤- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/ ١٠٧ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

أساليب السخرية وتطورها عبر العصور الأدبية:

في الحقيقة، إن خيال الأديب الساخر خيال ذو مرونة وطواعية، فالأديب الساخر يسلك مع الشخص المسخور منه شتى الطرق حتى يصل إلى السخرية منه والعبث به. وهو لأجل ذلك يستخدم وسائل وأساليب متعددة، وطرق مختلفة، مضافاً عليها من روعه وخياله ما يزيد من فاعليتها وتأثيرها. وهذه الوسائل والأساليب – على حد علمي – لا يمكن حصرها؛ لأنها خاضعة لفكر الإنسان وخياله، وهما ليسا محصورين. والواقع "أن السخرية تعبير حر فيه انطلاق، وفيه قدرة على الصياغة واختيار ما يؤدي إلى الغرض، فليس هناك ضوابط حتمية للأسلوب الساخر إلا بما يثير، هو بمجموعه" (١).

ومع ذلك، فقد لاحظ الباحثون – من خلال البحث والاستقراء – أن هناك عدة أساليب شائعة على الألسنة، قد اصطاح الناس على أنها أساليب ووسائل للسخرية.

وفيما يلي عرض لأشهر هذه الوسائل والأساليب:

١. السخرية بالمحاكاة:

المحاكاة: هي المشابهة، وأكثر ما يستعمل لفظ المحاكاة في القبيح لذا جاء في الحديث: ما سرني أنى حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا، أي فعلت مثل فعله (٢) وفي المحاكاة يقوم الشخص (الحاكي أو الساخر) بتقليد الشخص (المحكى عنه أو المسخور منه) في أسلوبه أو في صوته أو في حركاته، مدخلاً على فعله هذا نوعاً من

١- السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال/ ٤٠.

٢- ينظر: لسان العرب، ج ١٤ / ١٩١.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

النقد الساخر الذي يدعو المتلقى إلى الابتسام بجانب دعوته إلى التفكير في تجنب ما يشير إليه هذا النقد.

"ويتوصل - المقلد - إلى هذه الغاية من خلال المبالغة في بعض الخصائص أو السمات، وباستخدام الأسلوب نفسه تقريبا الذي يقوم على أساسه فن الكاريكاتير ويوصفها أحد أنواع السخرية: تهدف المحاكاة التهكمية إلى أن تقوم بالوظيفة التصحيحية والوظيفة التهكمية الساخرة في الوقت نفسه" (١).

ويبدو أن السخرية عن طريق المحاكاة أسلوب قديم في تاريخ البشر، لذا يقول بعض الباحثين: "أول صور السخرية وأقدمها في تاريخ البشر، وأكثرها انتشارا بين العامة هي السخرية "بالمحاكاة" في الكلام والمشى والحركات الجسمية، وأنوع السلوك المختلفة، أي في السمات البارزة التي تميز شخصية ما من الشخصيات" (٢).

- وهذا موجود - أيضا - في محاكاة المصريين القدماء التهكمية لبعض السياسيين في تلك الرسوم التي وجدت في المعابد على هيئة صور تحاكي الحيوانات وهي تسلك مسالك البشر (٣).
- وقد يمتاز كاتب أو خطيب أو شاعر بأسلوب ما، ثم يأتي آخر فيقلده ويمسحه ويحول معانيه الجادة إلى معان هزئية مضحكة.
- وهذا اللون كثير في أدبنا العربي، ويعرف بالمعارضات.
- ومنه على سبيل المثال معارضة حسين شفيق المصري (٤) لابن الفارض (٥) في قصيدته التي مطلعها:

١- الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/٤٧ .
٢- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/٣٧ .
٣- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/٤٧ .
٤- ولد حسين شفيق المصري في القاهرة سنة ١٨٨٣م لأبوين تركيين، وكانت كتاباته صورة دقيقة للحياة السياسية والاجتماعية بمصر، توفي عام ١٩٤٨م بحى السيدة زينب، ينظر: الأعلام، الزركلى ج٢/٢٣٩٩
٥- هو أبو حفص عمر بن أبى الحسن بن المرشد بن على الحموى الأصل، المصرى المولد والدار والوفاء، ولد بالقاهرة عام ٥٧٦هـ، وتوفى بها عام ٦٣٢هـ، ودفن فى سفح الجبل المقطم تحت المسجد المعروف بابن الفارض . ينظر فى الترجمة: وفيات الأعيان، لابن خلکان، ج٣/٤٥٤، ت/إحسان عباس، دار صادر - بيروت .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

سائق الأظعان يطوى البيد طى منعما عرج على كثنان طى^(١)

فقال حسين شفيق المصرى يعارضها ويحاكيها محولا معانيها الجادة إلى هزل
وضحك^(٢):

وإذا لاقيت من أهواه قل للذى أهواه من يهواك جى
إننى اشتقت إليه وأرى من هواه النار تشوى القلب شى
فى فؤدى لحبيبى عزبة زرعت شوقا وفيها الدمع رى

ولعل السبب فى أن التقليد يكون مدعاة للسخرية ، هو أن الساخر المقلد ينقل
شخصية المقلد برمتها، ويجعلها رداء له يلبسه، ويتماكن به كيفما يشاء، فكأنما
هو يمسخه^(٣) .

وهكذا تعد المحاكاة لونا من ألوان السخرية، وأسلوبا قديما من أساليبها الشائعة.

٢. المناداة بالألقاب:

المناداة بالألقاب أسلوب قديم من أساليب السخرية، ولعله من أقدم الصور السهلة
الساخرة فى السخرية، وتستعمل فيها أسماء الحيوانات كالأقاب، كقولهم للسمين:
"يا درفيل"، ثم استعمال هذا اللقب فيما بعد اسما يطلق على هذه الشخصية ، وتعرف به .
وكذلك، استعمال الصفات المعكوسة، وهى عكس ما يتصف به الشخص حقيقة
كألقاب ، ثم أسماء تتكرر كثيرا فى صور متنوعة، ومناسبات مختلفة ، حتى يلصق هذا

١- ديوان ابن الفارض، لابن الفارض/٣، مكتبة القاهرة، مطبعة حجازى ١٩٥١م والأظعان: جمع ظعينة، وهى اليهودج،
يطوى: مضارع طوى الأرض إذا قطعها، طى الأولى: مصدر طوى يطوى . منعما: اسم فاعل من أنعم عليه، بمعنى
تفضل عليه عرج: مل . والكثنان: جمع كثيب، وهو الثل من الرمل . طى الثانية: اسم لأبى قبيلة من العرب، "الرمل
التام".

٢- انظر الأبيات في: طرائف العرب ونواديرهم، محمد رضوان/٢٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠م،
"الرمل التام".

٣- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٣٧ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الاسم بهذه الشخصية، كإطلاق صفة "الهزيلة النحيفة" على البدينة "والسبع أفندي" على النحيف.

ويمكن استعمال ألفاظ أجنبية لزيادة الهزء بإدخال عنصر الغرابة كاستعمال "مد مؤزّل" للعجوز الطاعنة في السن، وكذلك استعمال أسماء الرنائيل وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة، كإطلاق "الشيخ متلوف" هزءاً وسخرية - على الفاسد، وإطلاق الأمين على اللص.

- ونحن لا نشعر بجرس السخرية من أحرف الكلمات فحسب ، بل من الجوامع المحيطة بها، ونعني به الجوامع الاجتماعية الذي يفهمه السامع أو القارئ^(١).
- إذن، فالسخرية عن طريق إطلاق ألقاب معينة على أشخاص لا يتصفون بها لول شائع ومستعمل ، وجار على كثير من الألسنة في كل العصور.

٣- السخرية عن طريق الصوت والحركة:

- السخرية عن طريق تلوين الصوت، وتنوع الحركات، لون قديم من ألوان السخرية.
- ويعتقد البعض أن هذا النوع أقدم أنواع السخرية، ولكن لا يمكن إثبات ذلك؛ نظراً لأنه لا يسجل على الورق كتابة، ولا على الحجر نقشا^(٢).
- والسخرية عن طريق الصوت تتحقق بالتلوين فيه، من نحو الرفع والخفض، أو إعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالباً، ويعرف صفاتها ومغزها الذي يمكن أن ينقله القلم إلى الورق.
- كما تتحقق السخرية عن طريق الحركات بتحريك عضلات الوجه، وانفراج أساريره، أو بهز الرأس ، أو الكتفين ، أو بالغمز بالعين، أو بالإشارة باليدين معا في وجه إنسان ما برفعهما وخفضهما سخرية من حماقة ارتكبتها أو جرم وقع فيه.

١- راجع السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/٣٧، ٣٨ .

٢- راجع المصدر السابق/٣٨ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- وقد تكون السخرية من الشخص عن طريق النظر إليه، ثم تأخذ في إدامة النظر إليه، وأنت تبتسم ابتسامة السخرية، أو تضحك ضحكة السخرية^(١).
- والضحك – كما يشير بعض الباحثين – تعبير مسموع يرتبط بانفعال معين خاصة البهجة والسخرية والارتباك^(٢).

فالنظر إلى شخص ما، وإدامة النظر إليه مع الابتسام أو الضحك يعطى دلالات مختلفة، ومعانى شتى، إذ هناك ضحك السرور والفرح، وضحك السخرية والازدراء، وضحك الشماتة والعداوة^(٣).

وكما قلت – من قبل – إن الجو المحيط ، أو الجو الاجتماعى الذى يفهمه السامع أو القارئ هو الذى يدل على المعنى المقصود ويشى به.

٤. السخرية عن طريق التحامق:

- الحمق – كما ورد في لسان العرب- ضد العقل ، والتحامق: هو وضع الشئ في غير موضعه مع العلم بقبحه^(٤)

والحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت، فكأنه كاسد العقل والرأى فلا يشاور ولا يلتفت إليه، وإنما سميت البقلة الحمقاء؛ لأنها تنبت فى سبيل الماء وطريق الإبل وسمى الرجل أحمق، لأنه لا يميز كلامه من رعونته^(٥).

فالحمق: هو مجموعة من السلوكيات أو الأقوال أو الأفعال التى تدل على الغفلة أو الذهول أو عدم إدراك العواقب ، ومن ثم فهى تثير الشعور بالدهشة، وكذلك الضحك^(٦) .
والتحامق: هو إظهار الحمافة والبلاهة والغفلة.

١- راجع: السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/٣٨ .

٢- انظر: الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/١٩ .

٣- راجع: المصدر السابق/١٩، ٢٠ .

٤- لسان العرب، ج. ٦٧/١٠، ٦٨ ، مادة "حمق".

٥- راجع : أخبار الحمقى والمغفلين ، لابن الجوزى /١٧، مكتبة ابن سينا للنشر و التوزيع – القاهرة .

٦- الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/٥٥ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- **وجدير بالذكر أن نقول:** إن ظاهرة التحامق وإظهار الغفلة ظاهرة عالمية، وقد نبئت لها جذور عريقة في أدبنا العربي القديم، كذلك فإنها كانت موجودة دائماً عبر التاريخ في بلاط الملوك، وفي ساحات الملاعب، والأسواق^(١).
والحق، أن الإنسان عندما يتأمل في ظاهرة التحامق، يجد فيها من الصواب "ما ينبئ عن حدة ذهن، وبنقة فهم، وجودة حدس.
فلقد وجد الناس في ذلك ضرباً من الفائدة، فكانوا يلجأون إليه كلما ضاق عليهم الأمر، وعسرت أممهم المسالك، فينالون ما يشتهون، ويحظون بما يحبون"^(٢).
 - ويذكر بعض النقاد أن للتحامق والتغافل أسباباً شتى: منها التقيّة وستر ما بالنفس؛ فراراً من العقاب أو الاضطهاد أو التهمة، ومنها السخرية من الناس إذ لا يروّتهم العقل، وصواب الرأي، فيكافئهم العاقل بمجانّتهم في نقص عقولهم فيتغافل.... ومنها رغبة الشخص العاقل في أن يفكه الناس، أو يتقرب إليهم، وينال عونهم وعطاءهم^(٣).
 - ومن بواعث الضحك في الغفلة أن يتحدث المغفل حديثاً يظن به أنه يقرر حقيقة أو يفيد جديداً، فإذا بحديثه بديهية عامة ليست محتاجة إلى قول، أو يتحدث حديثاً لا يلائم الحالة التي يتحدث فيها، وكلما كان الحديث بعيداً عن الملائمة، وأدل على الغفلة، كان أبعث على الضحك أو إثارة الضحك^(٤).
- فهؤلاء المتحامقون والمتغافلون يقومون بإصدار سلوكيات معينة تغرينا بالضحك وتدهش مشاعرنا "إنهم بشر بطبيعة الحال، لكن مظهرهم الخارجى يكون غريباً، وكذلك سلوكهم، وغالباً ما يكونون في حالة من الغفلة، والشروء الذهني، وأحياناً ما يكون مظهرهم

١- الفكاهة والضحك، د. شاكراً عبد الحميد/ ٥٥ .

٢- مجلة النوحة / ١٠٩، سبتمبر ١٩٨٥م.

٣- انظر: الفكاهة في الأدب، د. الحوفي، ج ٢٣/١ .

٤- الفكاهة في الأدب، د. الحوفي، ج ٢٦/١ بتصرف يسير .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ممسوخا على نحو واضح، إنهم ينتهكون النظام الاجتماعي القائم، ويتجاوزون معايير؛ ومن ثم يحدثون الضحك" (١).

والتحامق والتباله من ألوان السخرية الشائعة التي أثرت عن سقراط^(٢)، ووجد فيها الراحة. ولأن من يتحامق يريح ويستريح، فقد سئل زيد بن سعيد العبدى عن تحامقه فقال: "جددت فشقيت، ثم تحامقت فأرحت واسترحت" (٣).

ورد الحمدونى الشاعر على من لاموه على حمقه بقوله: "حماقة تعولني، خير من عقل أعوله" (٤).

٥. السخرية عن طريق القلب والعكس:

عندما تجرى الأمور فى مسارها الطبيعي، وفى إطارها المألوف، فإننا لا نجد مبررا للضحك، لكن الأوضاع إذا انقلبت، وأصبحت تصدر بصورة مقلوية أو معكوسة فإن ذلك يدفعنا إلى الضحك دفعا.

فالإنسان الذى يداعب غيره، فيحفر له حفرة عميقة ويغطيها حتى لا يراها، فإذا به هو الذى يقع فيها، فهذا الإنسان أراد أن يخدع غيره، ويكرهه، فانخدع هو وحقاق به مكره السئ.

فالقلب أو العكس: هو أن يقلب المتكلم جوابا أو سؤالا لسائل، أو يأتى بعكس ما كان ينتظر أن يأتى به، أو بكلام مفاجئ غير متوقع، أو يقلب فكرة أو قصيدة ليسخر من صاحبها، أو ليحوها إلى غرض فكاهي يسخر فيه من العيوب السائدة فى المجتمع (٥). أو هو باختصار: مجابهة الشخص بعكس ما يتوقع (٦).

- ١- الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/ ٥٥٠ .
- ٢- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/ ٣٩٠ .
- ٣- مجلة الدوحة، ص ١١٠، سبتمبر ١٩٨٥م .
- ٤- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفى، ج ٢٣/١ .
- ٥- السخرية فى أدب المازنى، د. حامد الهوال/ ٤٦٠ .
- ٦- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/ ٤٣٠ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ونحن عندما نواجه الإنسان بكلام على عكس ما يتوقع، أو بكلام مقلوب عن وضعه الطبيعي ، فإن لذلك في نفوسنا دلالات ساحرة، ومقاصد تهكمية تفهم من خلال الجوالعام للكلام.

- ومن هذا اللون: قلب الفكرة المعروفة إلى نقيضها، أو إلى مفارقة عجيبة لم تكن تخاطر على البال^(١).

وعنى الشعر العربي أمثلة كثيرة تشير إلى ذلك، حين يتجه بعض الشعراء إلى قلب بعض القوائد المشهورة إلى نقيضها، أو عكس الجمل السائرة إلى ضدها عكسا هزئيا.

فنحن حين نقرأ قول أبي نواس متغزلا في قينة اسمها "جنات" رآها بارزة إلى مآتم في البصرة وهي تبكي^(٢) :

يا قمرأ أبرن؛ مآتم يندب شجوا بين أترب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم السورد بعناب

ثم يأتي "ناصر العلوي"^(٣) فيقلب هذا الكلام ويعكسه قائلاً^(٤) :

يا قرنة أبصرت فى مآتم تندب شجوا بتخاليط
تبكى فتلقى البعر من عينها وتلطم الشوك ببلاوط

نجد أن قول ناصر العلوي، يحمل سخرية لاذعة، وقد تحقق له ذلك عن طريق قلب وعكس معانى أبي نواس بصورة هزئية تثير الضحك.

- وتشبيه بهذا الضرب أن يستشهد القائل فى مقام تافه حقير بكلام قيل فى مقام جليل، لا يصح أن يستشهد به إلا فى الموقف الرائع ، فكأنه عكس المقام، واستشهد فى كل موضع بعكس ما هوله.

١- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج ١٧/٢ .

٢- ديوان أبي نواس/٥٣، دار صادر - بيروت، "البحر السريع: عروضه مطوية مكسوفة، وضرب أصلم"

٣- تنظر ترجمته فى : الأعلام، الزركلى ، ج ٢٠٠/٢ .

٤- الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج ١٧/٢ ، "البحر السريع".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- من ذلك أن سفيان بن عيينة قال: دخلت الكوفة في يوم مطير، فإذا كناس فتح مرحاضاً، ووقف على رأس البئر وهو يقول^(١) :
بلدة طيب ويوم مطير
هذه روضة وهذا غدير
ثم قال لصاحبه: انزل فأبى صاحبه، فنزل وهو يقول:
لم يطيقوا أن ينزوا فنزنا
وأخو الحرب من يطيق النزولا
فلو تأملنا البيت الأول، نجد أنه قيل في الإعجاب ببلد جميل في يوم مطير وقيل في الإعجاب بروضتها وبغديرها، وشتان منا بين هذا وما يراه القائل.
- والبيت الثاني، قيل في الحماسة والإسراع إلى الحرب، حيث يجنب الأعداء وإن كانوا أبطالاً.
ومرّق شاسع بين نزول إلى أرض المعركة والقتال ، ونزول إلى المرحاض كما يكشف معنى البيت، إذ أين هذا من ذاك ؟ !
فهذا القائل قلب الموازين ، وعكس الأمور، حين استشهد في مقامه الحقير المهين بكلام لا يستشهد به إلا في رائع المقامات.
- ويدخل في هذا النوع: قلب المعنى الذي يتوقعه السامع قلباً مفاجئاً لم يكن يتوقعه؛ إمعاناً منه في السخرية والاستخفاف والازدراء.
فالسامع عندما ينتظر كلاماً معيناً ، ثم يأتي الجواب مقلوباً على عكس ما يتوقعه، تكون الدهشة ، ويكون الابتسام المحمل بمعانى التهكم والسخرية.
وكان القياس في البيت الأول أن يقال: بلدة طيبة، ولعل الشاعر لجأ إلى هذا التركيب لأمرين: المحافظة على الوزن العروضي ، ثم تأويل البلدة بالمكان، أي: مكان طيب
حكى أبو عمرو بن العلاء عن رجل من أهل اليمن: فلان لغوب، جاءته كتابي فاحتقرها.

١- الفكاهة في الأدب ، د . الحوفي ج ٢ / ١٨ نقلا عن العقد الفريد ج ٣ / ٣٣٣ ، "الخفيف التام" .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وذلك على تأويل الكتاب بالصحيفة (لسان العرب، ج ١/٧٤٢).

• وبما يمثل به هنا: قول ابن أبي عتيق لرجل: ما اسمك؟ قال: وثاب.

قال وما اسم كلبك؟ قال: عمرو. فقال: (١).

فلو كان من التوفيق

لسمى نفسه عمرا

قد أعطى أسبابا

وسمى الكلب وثابا

وهو نقد مصيب، وله وجاهته، وإن لم يكن السامع يتوقعه عند إجابته عن السؤال

الذي وجه إليه.

• وبما يدخل تحت هذا النوع: قلب الجملة أو الفكرة ضد قائلها، فيظهر القائل الأول

مناقضا لنفسه، فكأنه قال غير الذي أراد أن يقوله.

• وبما يمثل به في هذا الجانب قول أبي النجم (٢) حين أوصى ابنته "برة" يوم زفافها،

يقول (٣):

أوصيت من برة قلبا برا

لا تسأمي ضربا لها وزجرا

وإن كنتك ذهباً ودرأ

بالكلب خيرا وبالحمأة شرا

حتى ترى حلوا الحياة مرا

والحى عميهم بشرطرا

فالناظر في مطلع كلام أبي النجم لأول وهلة، يعتقد أنه سيوصي ابنته بوصية نافعة

تضمن لها حياة كريمة، في ضلال حياة زرجية جديدة، ولكنه ما إن يقرأ الشطر الثاني من

البيت الأول، حتى يفاجأ بعكس للأوضاع، وقلب لطبيعة الأمور، حيث يوصيها بالإساءة إلى

١- الفكاهة في الأدب، د. الحوفي، ج ٢/٢١، نقلا عن: محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني ج ٢/٢٠٢، "الوافر المجزوء"، وهو يشبه هنا ببحر الهزج؛ نظرا لدخول العصب في بعض تفعيلاته.

٢- هو المفضل بن قدامة بن عبيد الله بن الحارث، من رجاء الإسلام المقدمين، وفي الطبقة الأولى منهم، توفي عام ١٣٠ هـ الموافق ٧٤٧ م. (ينظر في الترجمة: الأغاني، للأصفهاني شرح الأبيد على مهنا، ج ١٠/١٨٣، ط/الثانية ١٩٩٢ م، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان).

٣- ديوان أبي النجم/١٠١، جمعه وحققه وشرحه: سجع جميل الجبلي، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م، "الأبيات من السريع التام"

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

والدة زوجها قولا وعملا، كما يوصيها بالإساءة إلى جميع أهل الحي، وفي ذلك لون من ألوان السخرية منهم، وطريق من طرق الحط من قدرهم ومكانتهم.

وقد تحقق ذلك عن طريق عكس الوصية عما كان ينبغي أن تكون عليه.

وقد يقلب المتكلم فكرة أو قصيدة ليسخر من صاحبها، أو ليحولها إلى غرض فكاهي

يسخر فيه من العيوب السائدة في المجتمع.

• وقد كان الشيخ عامر الأنبوطي^(١) مولعا بقلب القصائد الجديدة إلى الهزل.

ومن قصائده في ذلك ألفيته في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو

والصرف، يقول فيها:

أحمد ربي لست بالقنوط	يقول عامر هو الأنبوطي
مقاصد الأكل فيها محويه	وأستعين بالله في ألفية
لذت لكل جائع وهائم	فيها صنوف الأكل والمطاعم

إلى أن يقول فيها:

لحما وسنا خبزاً فالتقم	طعامنا الضاني لذيذ للنهم
مطاعمنا إلى سناها القلب أم	فإنها نفيسة والأكل عم
وجوزاً التقديد إذ لا ضرا	والأصل في الأخباز أن تقمرا

ففي مطلع الأبيات يبدو القائل في صورة جديدة، ثم ينقلب الحال عندما يقلب

الشاعر فكرة القصيدة، وينحو منحى الهزل ساخرا بذلك من كلام ابن مالك في ألفيته.

وللشاعر حسين شفيق المصري في هذه الناحية باع طويل، وقدم راسخة، إذ كان

مغرما بقلب القصائد الجادة إلى الهزل والضحك^(٢).

١- هو الشيخ عامر الأنبوطي الشافعي، شاعر هجاء، وصاحب فكاهة وسخرية، توفي عام ١١٧٣هـ، (تنظر الترجمة والأبيات في ٠٠٠ تاريخ الجبرتي، ج ١/٢٤٨، مطبعة حسين حسني بك ١٢٩٧هـ)، "والأبيات من الرجز التام".

٢- راجع: طرائف العرب ونوادرهم، محمد رضوان/٢٧٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

• وهناك ألوان أخرى، تدخل ضمن القلب والعكس، ومنها: الهزل الذي يراود به الجد. وذلك مثل قول أبي نواس^(١) :

إذا ما تميمى أتك مفاخرا فقل عد ودع ذا، كيف أكلك للضب؟

فإذا تأملنا البيت، نجد أنه يحمل بين أعطافه سخرية مرة، لكن الشاعر عرضها في صورة هزئية، فهو يريد أن يضع التميمي في وقت زهو، وافتخاره، بنفسه في صورة يعافها أشراف الناس، مما لا يجعل له حقا في الفخر.

ويبدو أن هناك جدية من الشاعر في وسم المهجو بالذم والعيب الفاضح، كما يتضح للقارئ مما فعله الشاعر من قلب للجو العام الذي بدأه التميمي مفتخرا مزهوا بنفسه، فكان الختام على عكس ما أراد^(٢).

• وبما يدخل ضمن هذا النوع: المدح في معرض الاستهزاء.

المعروف أننا عندما نمدح إنسانا معيناً، أو عملاً ما، ولا يكون هذا الإنسان أو هذا العمل مستحقاً للمدح، فإن مدحنا - والحال كذلك - لا يخرج عن إرادة السخرية منه والتهكم به وإهانته، فالحق - سبحانه - حين يقول في أبي جهل: "نق إنك أنت العزيز الكريم"^(٣) فهذا الكلام ليس مدحاً، وإنما هو سخرية وتهكم وتوبيخ وإهانة، والمعنى: لست بعزيز ولا كريم.

ولعل مما يمثل به هنا قول ابن الرومي^(٤) :

نياله من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل^(٥)

١- ديوان أبي نواس/٩٠، دار صادر - بيروت "الطويل".

٢- راجع: السخرية في أدب المازني/٤٧، "الطويل".

٣- سورة الدخان، آية: ٤٩.

٤- هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريح، المعروف بابن الرومي، ولد في بغداد عام ٢٢١هـ، ومات مسموماً عام

٢٨٢هـ أو ٢٨٤هـ (ينظر في الترجمة - الأعلام، الزركلي، ج٤/٢٩٧).

٥- انظره في: نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، ج٧/١٨٠، وزارة الثقافة والإرشاد القومي للتأليف والترجمة

والطباعة والنشر، مطابع كوستا تسوماس وشركاه - القاهرة، "البحر الرجز".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فالرفع إنما يكون لأعلى، فإذا قلب الشاعر الوضع، وانعكست الآية، فهذه سخرية لاذعة، وتهكم بهذا العمل، وأنه لا يرقى لأن يكون عملاً مقبولاً.

٦. السخرية عن طريق اللعب بالألفاظ:

السخرية عن طريق اللعب بالألفاظ، أسلوب قديم من أساليب السخرية والتهكم قدم اللغات الحية.

وطريقته أن "يلعب السامع باللفظ الذي سمعه، فيعكسه إلى معناه الآخر معتمداً على الاشتراك المعنوي في اللفظ الواحد، أو على الجنس، أو الطباق بين اللفظ الذي سمعه، واللفظ الذي ينطق به، وقد يحدث تلاعب لفظي غير مراد؛ لأنه ينشأ عن خلط بين اللفظ الذي نطق به المتكلم، ولفظ آخر قريب منه توهمه السامع، وفي هذه الحالة، ربما يجيء الرد مشاكلاً لذلك الخلط، فيزيد الموقف تعقداً وإضحاكاً" (١).

إذن : فأساس التلاعب اللفظي: هو محاولة المتندر أن يكسب الألفاظ معاني غير معانيها الواضحة؛ تمويهها على السامع، وسخرية به (٢).

والتلاعب اللفظي، ليس مقتصرًا على الأدب الفكاهي، أو الساخر فحسب بل إنه يتسلل إلى الأدب الجاد أيضاً، وذلك من أجل إحداث إثارة فكاهية ساخرة لكن بشرط أن يكون في حدود الأناقة، واللياقة اللفظية (٣).

ولذلك، قل أن تخلو منه لغة من اللغات، سواء في أدبها الجاد أو الفكاهي وكان المصريون من أكثر الأمم تعلقاً ولعاً به.

فقد استخدموه، باعتبارهم سلاحاً "لمقاومة سلطات الاحتلال، وفي الوقت نفسه للهروب من بطشها، إذ يصعب إثبات المعنى الحقيقي على قائله" (٤).

١- الفكاهة في الأدب، د. الحوفي، ج ٥٠/١ وراجع: السخرية في أدب المازني/٤١ •
٢- راجع: السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/٤٧ •
٣- راجع: الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٧٧ •
٤- المصدر السابق/٧٨ •

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومعنى ذلك، أن المصريين قد وضعوا أيديهم منذ أقدم الأزمنة على هذه المفاتيح اللغوية، وما يطوى فيها من تلاعب؛ قصدا إلى الضحك والسخرية^(١).

ويذكر بعض النقاد أن اللعب اللفظي - سواء أكان مقصودا أم غير مقصود- يضحك؛ "لأنه يمثل جهدا ضائعا، إذ إن حديث المتكلم ينتهي إلى نتيجة عقيمة... فكأنه عجز عن التعبير، أو كأن اللغة لم تستطع أن تعبر عما يريد، أو كأن السامع لم يحسن الاستماع والفهم، وأى حال من هذه الأحوال نوع من التصلب المضحك"^(٢).

ومن أمثلة اللعب اللفظي القائم على الجناس، ما يذكر من أن "أبان بن عبد الحميد اللاهقي" تقلد ديوان الشعر "ليحيى بن خالد البرمكي" في عهد "الرشيد"، فكان الشعراء يرفعون إليه أشعارهم في البراءة، فيسقط ما يرى إسقاطه، ويعرض ما يرى عرضه، فأسقط مرة شعرا لأبي نواس فيما أسقط، فقال أبو نواس: ^(٣).

طعامنا الضاني لذيذ لنهم	لحما وسمنا خبز فالتقم
فإنها نفيسة والأكل عم	مطاعمنا إلى سناها القلب أم
والأصل في الأخباز أن تقمرا	وجوزا التقديد إذ لا ضرا
صحفت أممك إذ (م)	سمتك في المهدي أبانا
قد علمنا ما أرادت	لم تـرـنـا إلا أتانا
صبرت بقاء مكان التا (م)	ء والله أعاننا

فقد تلاعب الشاعر بالألفاظ، فجمع بين لفظي (أبان، وأتان) في جناس لاذع

السخرية والتهكم.

١- راجع: الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف/٢٢، ٢٣.

٢- د. أحمد الحوفي، الفكاهة في الأدب ج١/٥٠.

٣- ديوان أبي نواس، ص ٦٦٩، دار صادر - بيروت، "مجزوء الزمّل".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومن الطبايق قول الفرزدق في بنى كليب^(١) :

لعن الإله بنى كليب إنهم لا يغدرون ولا يفنون لجار

فالفرزدق يسخر من بنى كليب، ويعيرهم بأمرين: الأول: "لا يغدرون" ولو اقتصر الشاعر عليها لاحتمل الكلام ضرباً من المدح، إذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة.

والثاني: "ولا يفنون" فهذا الأمر دال على أن عدم غدرهم، إنما هو عن عجز كما أن ترك الوفاء إنما هو للوهم.

وقد ضاعف الفرزدق من سخريته عند ذكره لكلمة "جار"؛ لأن السخرية من ترك الوفاء للجار، أشد من السخرية من تركه لغيره.

٧- الرد بالمثل:

من أساليب السخرية الشائعة في الشعر العربي: الرد بالمثل، أو مراعاة النظير في الرد. ومعناه: أن يوجد نوع من التناسب العام بين ما يقوله المتكلم وبين الرد عليه، وهو مثير للسخرية والضحك، ومبعث الضحك فيه أن المتكلم الأول قصد إلى التندر أو الاستهزاء بالسامع، فإذا بالسامع يبعثه برد أشد تندراً، وأكثر استهزاءً، وأدعى إلى الضحك، وهو في رده حاضر البديهة، سريع الخاطر، ماهر في مراعاة النظير، واختيار الرد المجانس للكلام الذي سمعه، وهذه المفاجأة البارعة في الرد المجانس مثيرة للضحك^(٢).

والرد بالمثل عادة ما يكون أكثر سخرية، وأشد لذعاً، ودعى إلى الضحك^(٣).

وبما يذكر، أننا لو تأملنا في شعرنا العربي قديمه وحديثه، لوجدنا أنه "يزخر بأساليب تعتبر من الرد بالمثل في مضمونها العام، وإن اتسعت لوضعها ضمن طائفة أخرى من الأساليب"^(٤).

١- ديوان الفرزدق، ج ١/٣٦٠، ت: كرم البستاني، دار صادر - بيروت، "الكامل التام".

٢- الفكاهة في الأدب، د. الحوفي، ج ٢/٢٠.

٣- راجع: السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال، ٤١/٠.

٤- المصدر السابق، ٤١/٠.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وقد يتداخل الرد بالمثل مع اللعب بالألفاظ، حيث يمثل كل منهما نوعاً من المهارة العالية في استخدام اللغة، وإن كانت هذه المهارة تعتبر جهداً ضائعاً في جانب اللعب بالألفاظ؛ لأنه حشد للألفاظ بطريقة لا تخدم غرضاً معيناً بقدر ما توحى بالرغبة في العبث والمشاكسة.

أما جانب الرد بالمثل، فإنه يوحى بالمشروعية، والمطابقة للموقف، ويعكس معنى العدل ويجسمه، ولذلك نجد ما يشبه الإجماع على قبول هذا اللون من الكلام كما نراه مقبولاً أيضاً في العلاقات الإنسانية والدولية، ومنه مبدأ المعاملة بالمثل.

فالرد بالمثل كلاماً أو عملاً منبه قوياً للإنسان لكي يلتزم جانب الصواب في حياته القائمة على العلاقات المتبادلة، التي تتطلب احترام حق الآخرين^(١).

ومن الأمثلة التي تذكر لهذا اللون، ما يذكر أن "ابن مناذر" طلب من "أبي حية النميري"^(٢) أن ينشده بعضاً من شعره، فأنشده قوله^(٣):

ألا حى من أجل الحبيب المغايا لبسن البلى مما لبسن اللياليا
إذا ما تقاضى المرء يوماً ويلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا
جفتك الليالى بعد ما كنت مرة سوى العصا لوكن يبقين باقيا

فقال ابن مناذر: أو شعر هذا؟ فأجابه ابن حية: ما فى شعرى عيب غير أنك تسمعه!
فقد أراد ابن مناذر أن يتهم بهذا الشعر، فرد عليه الشاعر بأنه لا عيب فى شعره غير أنه سمعه.

وهذا الرد أشد تندراً، وأبلغ فى السخرية والإيلام.

١- راجع: السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال، ٤٢، ٠.
٢- هو الهيثم بن الربيع بن زرارمة من بنى نمير بن عامر، وهو شاعر مجيد، فصيح راجز، من أهل البصرة وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، مات فى آخر خلافة المنصور سنة ١٥٨هـ.
ينظر فى الترجمة: تجريد الأغاني، لابن واصل الحموى، ت. د. طه حسين، إبراهيم الإبيارى، ١٧٥٨/١/٢ دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان.
٣- زهر الأداب، لأبى إسحاق الحمصرى القيروانى، ج ١/٢٦٩، ط/المكتبة التجارية ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م، "البحر الطويل".

٨. التلاعب بالمعاني:

التلاعب بالمعاني أسلوب من أساليب السخرية، والتلاعب بالمعاني يكون مقصوداً أحياناً، وفي أحيان أخرى يكون غير مقصوداً.

وقد أشار علماء البلاغة والنقد إلى أن هذا اللون يشمل ألواناً أخرى، كالكناية والتورية، والتعريض، والإجابة بغير المطلوب، أو ما يسمى بالأسلوب الحكيم.

فأما الكناية: فهي التعبير بجملة أو بجملة يراد بها معنى آخر مرتبط بالمعنى الأصلي^(١).

وقد يكون التعبير عن الفكرة المرادة قائماً على ألفاظ أو عبارات تؤدى بصورة مضحكة.

وذلك كالذى رد على صديقه حين سأله: كنت عند الأمير، فماذا ولاك؟ بقوله: ولانى قفاه.

وفي هذا التعبير سخرية من وجهين: سخرية من الأمير؛ انتقاماً منه، لأنه رده دون

شئ، وسخرية من النفس؛ للتعبير عن الحرمان والعونة خائباً.

وفي هذا من التنفيس عن ذات المتكلم ما يخفف عنه آلام الشعور بالحرمان

والخيبة، وهو تعبير مضحك على كل حال^(٢).

وقد ينشأ الضحك والسخرية فى الكناية عما فيها من لباقة المتكلم وخداعه

للسامع، بنوع من الغموض والإبهام.

ومما يمثل به لهذا الشأن: أن "العريان بن الهيثم" أتى بـغلام سكران، فقال له: من

أنت؟ فقال^(٣):

أنا ابن الذى لا ينزل الدهر قدره؛ وإن نزلت يوماً فسوف تعود

ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره؛ فمنهم قيام حولها وتعود

فظنه ولدا لبعض الأشراف، فأمر بإطلاق سراحه، فلما تحرر عنه، عرفوا أنه ابن باقلانى^(٤)

١- انظر: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج ٣٣/٢، والسخرية فى أدب المازني/٤٣.

٢- راجع: المصدرين السابقين والصفحة.

٣- انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٤٤١/٢، ٤٤٢، الطبعة الأولى ١٩٩٢م دار الإمام على للطباعة والنشر، "البحر الطويل".

٤- الباقلانى: بانع الفول، والمراد هنا: الفول المدمس أو المطبوخ، وما يشبهه الفول. (ينظر: لسان العرب ٦٢/١)

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ووجه السخرية هنا: أن المتكلم أخفى كلامه بشئ من الغموض والإبهام حتى فهم منه السامع شيئاً غير مراد، فكأنه المتكلم يسخر- بذلك - من غبائه وقلة فطنته.
وأما التورية: فمعناها: تعبير الكلمة عن فكرتين منفصلتين. إحدهما قريبة الخطور بالبال، لكنها غير مرادة، والأخرى بعيدة الخطور بالبال، لكنها هي المرادة^(١).
ويعرفها آخرون بأنها: العبقرية التي تجعل شخصا من الأشخاص يستعمل ألفاظا تعنى شيئاً ما بالنسبة إليه، و شيئاً آخر بالنسبة للنظارة العارفين بالحقيقة.
وذلك كمن يقول لأعدائه مقدما لهم طعاما مسموما: طعاما هنيئها يا سادة^(٢).
والتعريفان يدوران حول معنى واحد، وإن كان الثاني يجعل استعمال هذا الأسلوب لونا من ألوان العبقرية.

- والتورية - بعد ذلك - تعد باعثا من بواعث الضحك، وذلك عندما يكتشف السامع خطأ فهمه الأول، ويقف على حقيقة الفهم الصحيح لمعنى الكلام.
- وأساس التورية - في الأدب العربي - الاتحاد في الحروف، والاختلاف في المعنى والاتحاد في الحروف قد يكون كاملا، وقد يكون في أكثرها.
- والتورية - بعد ذلك - هي لون من ألوان التلاعب بالمعاني، وهي تستغل في السخرية استغلالا ناجحا، ولا سيما إذا صدرت من عبقرى أريب يعرف أوجه الكلام وتصاريفه.
- ومن الأمثلة التي تذكر في هذا المقام، ما قاله أبو الحسن يحيى الجزر المصري المتوفى سنة ١٣٦٧هـ^(٣):

تزج الشيخ أبى شيخة ليس لها عقل ولا ذهن

١- الفكاهة في الأدب، د. الحرفى، ج٢/٤٠.
٢- الفكاهة والضحك، د. شاکر عبد الحميد/٥٤ * والسخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/٤٢.
٣- فوات الوفيات، لمحمد بن شاکر الکتبي، ت: د. إحسان عباس، ج٤/٢٧٧، دار صادر - بيروت ١٩٧٣م، "والأبيات من السريخ التام".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

لو برزت صورها فى الدجى ما جسرت تنظرها الجن
كأنها فى فرشها رمة وشعرها من حولها قطن
وتأئل قال لى : ما سنها ؟ فقلت: ما فى فمها سن

ففى كلمة (سن) فى البيت الأخير تورية، ومعناها القريب غير المراد: أنها بمعنى
واحدة الأسنان، ومعناها البعيد: العمر، وهذا المعنى هو المراد.

وهذه سخرية لاذعة، تسخر من ناحية اجتماعية معينة، حين يقوم بعض الناس
بالزجاج فى سن لا يسمح لهم بذلك.

والتورية هنا، تبعث على الضحك؛ نظراً لما بين الكلمتين من بعد بعيد فى المعنى.
وأما التعريض : فهو من أشهر أنواع السخرية وصورها فى أدبنا العربي ومن
أكثرها انتشاراً واستعمالاً على الألسنة^(١).

والتعريض معناه: الكلام الذى لا يقصد به المتكلم معناه، وإنما يقصد معنى آخر
وليس بين المعنيين تلازم كما فى الكناية ، أو دليل على المعنى القريب يخدم عن المعنى
البعيد كما فى التورية^(٢).

وهذا يدعونا إلى بيان الفرق بين التعريض ، والكناية، والتورية.
أما الفرق بينه وبين الكناية: فهو أن الكناية قائمة على التلازم والتربط بين المعنيين ،
والتعريض لا تلازم فيه ولا تربط، وإنما يفهم السامع المراد الخفى من تلقاء نفسه.
وأما الفرق بينه وبين التورية، فهو أن للكلمة الواحدة فى التورية معنى قريباً
ترجحه قرينة فى الكلام ، ومعنى آخر بعيداً هو المراد، ولا قرينة عليه، بينما التعريض جملة
ليس لها إلا معنى واحد ، يدركه السامع، فيفهم ما وراء الكلام من بواعث.

١- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٣٩٠ .
٢- راجع: الفكاهة فى الأدب، د. الحوفي، ج٢/٥١، والسخرية فى أدب المازني/٤٤٠ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

والإنسان الساخر يلجأ إلى أسلوب التعريض، حين يكون المهجو (المسخور منه) ذا مكانة اجتماعية، ونفس حساسة، يكفيه التلميح، ويوقظه التعريض، أو إذا كان قريباً ذا آصرة تحرم التصريح، ورابطة لا تحل الكشف، فهنا يلجأ... إلى التعريض ليكون بمثابة التحذير المبدئي، والإنذار المبكر.

والتعريض أسلوب مؤم، وإن لم يكشف عن المعنى ويظهر الدلالة، لأن في الإظهار تحديداً للمراد، وقصراً للغاية، وفي الإطلاق اتساعاً للخيال، وسعة في التحليق والظن^(١).
وبما يمثل به للتعريض هنا: أن رجلاً من "محارب" دخل على "عبد الله بن يزيد الهاللي"، وهو والى أرمينية، وبالقرب منه غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله ابن يزيد: ما تركتنا شيوخ محارب ننام الليلة: فقال له المحاربي: أصلح الله الأمير أتدرى لم ذلك؟ قال: ولم؟ قال: لأنها فقدت برقعا لها.

قال عبد الله : قبحك الله، وتبج ما جئت به.

أراد عبد الله بن يزيد الهاللي قول الأخطل^(٢) في محارب^(٣) :

تنق بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبرى^(٤)

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

وأراد المحاربي قول الشاعر^(٥) :

لكل هلالى من اللؤم برقع ولا بن يزيد برقع وقميص

١- راجع: الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/٣١٧، ٣١٩.
٢- هو أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة التغلبي، نشأ على النصرانية، وكان سليل اللسان، توفى سنة ٩٠ هـ الموافق ٧٠٨ م (ينظر فى الترجمة: الأغاني، للأصفهاني، ج٨/٢٩٠).
٣- ديوان الأخطل، شرح وتقديم المهدي محمد ناصر الدين/١١٣، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ١٩٨٦ م.
٤- تنق: تصدر أصواتاً كأصوات الضفادع، كناية عن القبح، ولا تريش ولا تبرى: استعارة معناها: أنها لا تقدم فى الحرب ولا تؤخر.
٥- العقد الفريد، ج٢/٤٤٤، "الطويل".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فقد أراد كلا الرجلين أن يسخر من صاحبه، واختار لذلك أسلوب التعريض لما فيه من خفاء وستر، ولكونه أشد إيلاما، وأوسع مجالا للخيال، وسوء الظن .
وبما تجدر الإشارة إليه هنا، أن اللعب بالمعاني – باعتباره أسلوبا من أساليب السخرية – بألوانه الثلاثة "الكنائية"، و"التورية"، و"التعريض" وبغيرها مما لم نجد داعيا للحديث عنها "قرين لأسلوب الرمز الذي يشترك مع هذه الألوان في أن المعنى المراد عادة يكون بعيدا، وإن كان في أسلوب اللعب بالمعاني متضمنا من اللفظ ما لا يصعب فهمه وإن اختلط بغيره، في حين أنه في الرمز موح به، تقصده العبارة، وإن لم تتحدث عنه .
والرمز قرين اللعب بالمعاني أيضا في أن كلا منهما يستخدم لحماية صاحبه من الوقوع تحت دائرة الإحباط إن كان هناك، وإن كان الرمز أوسع مدى وأرحب ساحة"^(١).

وهذا يعنى أن اللعب بالمعاني أسلوب من أساليب السخرية، لا يتقنه إلا من أوتى حضا من العبقرية والنبوغ، والموهبة الفنية العالية.

٩. المبالغة والتزويد:

المبالغة والتزويد في القول لون من ألوان السخرية، وقد عرف ذلك منذ زمن بعيد، فقد كان من شأن العرب أن تبالغ في الوصف والذم، كما من شأنها أن تختصر وتوجز، وذلك لتوسعها في الكلام واقتدارها عليه .
والمبالغة نوعان: مبالغة في اللفظ، وهي التأكيد كقولنا: رأيت زيدا نفسه ومبالغة في المعنى – وهي ما نقصد إليه هنا – وهي إخراج القول على أبلغ غايات معانيه^(٢). وبذلك يبلغ الذرة في الوصف أو الذم على حد سواء .

١- السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال/٤٥ .
٢- راجع: نقد النثر، قدامه بن جعفر، حققه وعلق حواشيه: د. طه حسين، وعبد الحميد العبادي/٧٠، ٧١، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية – القاهرة ١٩٣٩م .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وشى طبعى أن يستغل الشاعر الهجاء أو الساخر المعطيات التى أمامه من الواقع ويبنى عليها فنه، ويبالغ ويتزيد بما يناسب السخرية والإضحاك، إذ الإسراف فى كل شئ يضحك ولو كان فى الفضائل، ثم إنه مرتبط بالحالة التى يعبر عنها الشاعر وحالته النفسية.

فمبالغة الشاعر فى السخرية والإضحاك، قد تكون علاجاً للشخص المسخور منه وإلا لبدا الشاعر الساخر ضعيفاً لا يشفى صدره، وهذا لا يحقق غاية^(١) - فالمبالغة - من خلال ما تقدم - هي: أسلوب من أساليب الفكاهة والسخرية التى تستخدم كثيراً فى التنكيت، وهى تعتمد على الإفراط فى الوصف، وتجسيم الصورة أو العيب المقصود^(٢).

ولعل من أوضح ما يمثل به فى هذا المقام قول امرأة "قتادة بن مغرب اليشكرى" تهجوه وتسخر منه^(٣) :

حلفت فلم أكذب وإلا فكل ما	ملكيت لبيت الله أهديه حافية
لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها	مخافة فيه إن فيه لداهية
فما جيفة الخنزير عند ابن مغرب	قتادة إلا ريح مسك وغالية
كيف اصطبارى يا قتادة بعدما	شممت الذى من فيك أثنى صماخيه

فامرأة قتادة بن مغرب اليشكرى تبالغ وتتزيد فى هجاء زوجها والسخرية منه فقد أرادت أن تصور رائحة فمه الكريهة المنتنة ، فادعت أن المنايا لوبرزت لها، لاختارت أن ترمى بنفسها فيها على أن تعيش مع زوجها؛ خوفاً من بخرفمه؛ لأن هذا البحر كالداهية.

وفى الموت تتجمع كل الصفات الكريهة ، ولما كانت هذه المرأة مدركة أنها تبالغ فقد صدرت البيت بـ"لو" التى تخفف من علواء المبالغة، وتقلل من حدة التزيد.

١- راجع: الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/٣١٣ .
٢- راجع: السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/٤٩، والسخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/٤١ .
٣- ديوان الحماسة، لأبى تمام الطائي، ج ٢/٢١٩، مكتبة الكليات الأزهرية، "الطويل".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ثم إنها عادت إلى المبالغة مرة أخرى، عندما زعمت أن رائحة جيفة الخنزير - على شدة ننتها - ما هي إلا كرائحة المسك والغالية بالنسبة إلى رائحة بخر قتادة لشدة ننته، وهذه مبالغة شديدة ومؤلة جاءت عن طريق المقارنة والمقارنة "نمط من أنماط التعبير المؤم النافذ لما يتضمن من المقارنة والتفضيل، وبضدها تتميز الأشياء"^(١).

ومن الأمثلة - أيضا - ما جاء في قول أعرابي في عجوز تزوجها^(٢) :

'ها جسم برغوث وساقا بعوضة
ووجه كوجه القرء بل هو أقبح
تبرق عينيها إذا ما رأيتها
وتعيس في وجه الضجيع وتكلج^(٣)
لها مضحك كالحش تحسب أنها
إذا ضحكت في أوجه القوم تسليح^(٤)
وتفتح - لا كانت - فما لورأيته
توهمته بابا من النار يفتح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها
تعوذ منها حين يمسي ويصبح

فقد حاول الشاعر في هذا النص أن يستجمع لهذه المرأة كل صفات القبح والدماة، مبالغا في ذلك ما وسعته المبالغة والتزيد.

وفي ذلك سخرية مرة موجعة، تعصف بهذه المرأة عصفا، وتصيبها في مقتل.

١٠. التصوير الساخر الكاريكاتيري:

التصوير الساخر أسلوب من أساليب السخرية الناجحة، التي يستخدمها الإنسان الساخر ليضع الشخص المسخور منه في صورة مضحكة أمام الآخرين وهذا يأتي عن طريق التحريف في الملامح المميزة لشخص معين، والمبالغة فيها بطريقة تؤدى إلى حدوث أثر مضحك لدى المتلقي^(٥).

١- الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/٣١٧٠.
٢- انظر: المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد الأبيهي، شرح: د. مفيد محمد قميحة، ج ١/٢٦١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٩٩٣م، "الطويل".
٣- تكلج: تعيس ويزيد عبوسها.
٤- الحش: الدبر والمخرج، ومكان قضاء الحاجة، والسلاح: كل ما يخرج من البطن من الفضلات.
٥- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/٣٧٠.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وقد حاول بعض النقاد تعريفه، فقالوا: إنه نوع من النقد، يعتمد في جملته على التماس العيوب الرئيسية لظاهرة معينة يعرضها بأسلوب فني، ويبالغ في تصوير العيب أو النقص، ويبرز وجه التناقض على شكل نكتة ترد في ذهن الفنان^(١).

ويذكر الدكتور شاكر عبد الحميد: أن التصوير الكاريكاتيري "نوع من الحط من قدر الشخصية، بالتركيز على صفة من صفاتها، أو ملمح من ملاحظاتها كان يمر من دون أن يتوقف عنده أحد؛ لأنه كان منظورا عليه حينئذ في الإطار الكلي للصورة العامة، وحين يلتفت إلى هذا الملمح وحده من دون سواه، يقع التأثير المقصود، وهو الضحك الذي يمتد حينئذ من الجزء إلى الكل، أو إلى الشخص نفسه فإن لم يكن الشخص بالفعل يشتمل على ذلك الملمح، فإن الكاريكاتير حينئذ يعتمد إلى خلق ذلك خلقا، بأن يتجه إلى عنصر ما في الشخصية ليس مضحكا في ذاته فيبالغ في تصويره"^(٢)، وبذلك يستفز المتلقي وينتزع منه الضحك انتزعا.

وقد تحدث الأستاذ الدكتور/شوقي ضيف عن التصوير الساخر، وأراد حصره في نطاق الرسم بالألوان، والخطوط، والظلال، والأضواء، والنحت فقط، وذلك حين يقول: "وهناك ضرب من الفكاهة - ومنها السخرية - لا يعتمد على كلمات، ولا على حروف وإنما يعتمد على الألوان والخطوط والظلال والأضواء وقد شاع في القرنين الأخيرين بأوروبا ونقلناه عنها، وكان لنا منه حظ في عصورنا القديمة ونقصد التصوير الساخر "الكاريكاتوري"^(٣) والحق أن التصوير الساخر، يتسع مجاله وتتسع طرق التعبير عنه، حتى لتشمل الكتابة بالحروف وبالكلمات، وبالخطوط والألوان، وبالظلال والأضواء.

١- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان التميمي/، ٣٦٠، دار المسيرة - بيروت.

٢- الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد/ ٣٧٤.

٣- الفكاهة في مصر/ ١٤، ١٥.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

والشاعر - فى الأصل - فنان ذو خيال واسع، ومصور عبقرى، فهو "يعرف كيف يجسم الصورة، وكيف يركبها، وكيف يحشد جزئياتها وعناصرها، فإذا هى تتحول إلى لوحة كبيرة، كهذه اللوحات التى نراها فى معارض الرسامين، فلا نستطيع أن نخفى إعجابنا بها، ولا سرورنا فى أثناء رؤيتها"^(١).

وهو يعرف - أيضا - كيف يسلط الضوء على العيب أو النقص، ويبالغ فى تضخيمه بصورة تلفت الأنظار إليه "وهذه المبالغة فى تضخيم الصورة وتشويهها لا تتعارض مع الصدق الفنى لدى الشاعر: لأن الهجاء الكاريكاتيرى فن هادف ذو موضوع كبير الأهمية فى نفس الشاعر، ولذلك فإن الشاعر - مدفوعا بهذه الأهمية - يعمد إلى هذا الأسلوب المضحك، فالضحك تأديب قبل كل شئ، وقد وجد ليخزى، فلا بد أن يشعر موضوعه بشعور مؤلم"^(٢).

ذلك لأن الساخر "يقف عند جوانب الضعف فى جسد شخص أوفى وجهه ويكبرها كأنما يريد أن يرمى الضعف أو العيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه، فنراه ينتهز فرصة مثل تقويس حاجب، أو انحناء أنف، أو تجعيد جبهة، أو انتفاخ خد، أو طول ذقن، أو ضيق عين ويكبر ذلك مشوها ومستغلا للطبيعة والخلقة، وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها، وفى الوقت نفسه تصبح مضحكة، لما أظهره الرسام من تنافر فى أوضاع الجسد أو الوجه"^(٣).

ولعل ابن الرومى يقف على القمة فى هذا الفن، حيث إنه قد أوتى أسباب التفوق فى الإفادة من اللحظة الحاسمة الدقيقة فى التقاط الصورة الساخرة التى تفوق الأصل المصور فى قوة التعبير والأداء.

١- شوقى شاعر العصر الحديث، د. شوقى ضيف/٤١، ط/دار المعارف ١٩٩٥م.

٢- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى، قحطان النيمى/٣٦٠.

٣- الفكاهة فى مصر، د. شوقى ضيف/١٥.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومن ذلك قوله في عمرى النصرانى راسما له هذه الصورة الساخرة^(١) :

يا عمرى فخرًا فقد أعطيت منزلة ليست لقس ولا كانت لشماس
للناس فيل إمام الناس مالكة وأنت يا عمرى فيل الله لا الناس
ليك خرطوم صدق لا فجعت به فإنه آلة للجوء والباس
لوشئت كسبا به صادفت مكتسبا أو انتصارا مضى كالسيف والفاص
من ذا يقوم لخرطوم حييت به إذا ضربت به قرنا على الراس
أو من يراه فلا يعطيك خلعتَه لا تكذبن فما بالصدق من باس
حملت أنفا يراه الناس كلهم من رأس ميل عيانا لا بمقياس

فالناظر في هذه الأبيات لأول وهلة ، يتوهم أن ابن الرومى يمدح عمرًا هذا ويعلى من قدره، حيث يرفعه على قس بن ساعدة الإيادي، وعلى شماس ممدوح الحطيئة، ولكنه يفاجأ بأمر مضحك، وهو أن ابن الرومى يسخر من عمرى هذا سخرية مرة ولانعة ، حيث يصوره بصورة فيل ضخم كأكبر ما يكون فيل، ويصف خرطومه بأنه كبير مخيف يرهب الآخرين ، فيجوبون له اتقاء غضبه وثورته .

وقد بلغ ابن الرومى ذروة السخرية عند قوله: "لا فجعت به" وكأن هذا الخرطوم شى غال وعزیز، والشاعر يدعو له - متهكما - بطول البقاء والسلامة، فهذا الأنف- الخرطوم - مصدر عطاء، ومظهر قوة، وهو لضخامته وكبره فإن الناس يبصرونه من بعد بعيد . وهكذا ينقل ابن الرومى لنا الأشكال والهيئات بصورة فريدة ومتميزة كما يطبع المصور ما يراه من أشكال وهيئات .

١- ديوان ابن الرومى، مختارات كيلاني، ج ٢/٢٤٠، المطبعة التوفيقية، "البيسط التام".

١١- السخرية عن طريق التهكم:

التهكم أسلوب ناجح من أساليب السخرية، وهو يعد من أعمق أساليبها. والتهكم : طريقة تبدى ما يقصده الإنسان لا بطريقة مباشرة، ولكن من خلال طريقة خاصة فى النظر إلى الأشياء والشعور بها، والتعبير عنها، طريقة تجمع بين الجد والهزل، مما قد يجعل الابتسامة تتسع على شفاة السامعين أو القراء، ثم تتسع هذه الابتسامة تدريجيا، شيئا فشيئا، حتى تتحول إلى ضحك^(١). ويذكر الدكتور نعمان طه أن التهكم هو: ذكر أشياء أو أباطيل لا يعتقد بها الشخص، وفى نفس الوقت يتظاهر بالاعتقاد بأنها صحيحة، أو يذكرها فى معرض التعجب من وجودها، ومن ثم الاستهزاء بها. وعلى كل، فالتهكم من صور السخرية الشفافة التى ليس من السهل تعريفها ولكنها تعرف بالذهن اللماح^(٢).

ويعد التهكم "وسيلة لتهديب الفرد والمجتمع ، والسعى بهما إلى مستوى أكثر تقدما، وأرقى حضارة؛ لأن الأديب حين يتهمك ، فإنه يربط ما بين الأشياء والأمور الواقعة وما يجب أن تكون عليه من مثل الكمال، أى أنه يقابل الواقع على ما فيه من تخلف أو فساد أو نقص بالكمال الذى يراه الهدف والغاية"^(٣).

هذا، ومن الأمور الملحوظة فى أسلوب التهكم "أنه لا يمكن إعطاء أمثلة حقيقية لمثل هذا النوع بجملة مبتورة؛ نظرا لأن الكلمة أو الجملة تفقد حيويتها إذا انتزعت من الكل الحى النابض بالحياة، كالعضو الذى يموت إذا اقتطع من الجسم كله"^(٤).

١- راجع: الفكاهة والضحك، د. شاكِر عبد الحميد/٤٧

٢- راجع: السخرية فى الأدب العربى/٤٤٠

٣- الفكاهة فى الأدب ، د. الحوفى، ج١/٧٣ بتصرف يسير .

٤- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/٣٩٠

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومما يمثل به لهذا اللون من السخرية، قول أعرابي في "سعيد بن سلم الباهلي" وقد استبدطاً ثوابه بعد أن مدحه^(١):

لكل أخى مدح ثواب يعده وليس لمدح الباهلي ثواب
مدحت سعيدا والمديح مهزة فكان كصفوان عليه تراب^(٢)

فالبخل والشح رذيلة في المجتمعات الفاضلة، لذا كان البخلاء والأشحاء مبعوضين إلى الناس، وكانوا أهدافا لسهام الأدباء، ومثارا للتهكم والتندر عليهم في كل العصور. وفي البيتين السابقين، يتهمك هذا الأعرابي ويسخر من بخل سعيد بن سلم الباهلي، ويبلغ هذا التهكم ذروته وغايته عندما يصفه بقوله: فكان كصفوان عليه تراب مما يعطى إشارة ودلالة بأنه لا يرجى منه نوال أو عطاء، كما أنه يرميه بالإهمال وقلة الشأن، فهو كالحجر الملقى الذي تتجمع عليه الأتربة، ولا يأبه به أحد.

وهكذا يمثل التهكم لونا عميقا من ألوان السخرية، له خطره ودلالته. هذه أهم وأشهر أساليب السخرية الشائعة على ألسنة الأدباء والحكماء، وهذا لا يعنى أن هذه الصور هي كل صور السخرية، فما زالت هناك صور أخرى كثيرة اكتفينا بما ذكرناه هنا عنها كسخرية القدر^(٣)، والسخرية المغرضة^(٤) وغيرهما.

السخرية في القرآن الكريم:

عندما نتحدث عن السخرية في الأدب، يتطرق إلى أذهاننا أمر لا مناص من الحديث عنه، وهو الحديث عن السخرية من وجهة النظر الدينية، خاصة وأن القرآن الكريم قد نهى عنها، ووجه المؤمنين توجيهها مباشرا إلى عدم سخرية بعضهم من بعض، وقد جاء ذلك في قول الله - تعالى :-

- ١- انظر: العقد الفريد، ج٣/٥٠٧، "البحر الطوي" .
- ٢- مهزة: داعية إلى العطاء. والصفوان: الحجر الصلد الأملس لا ينبت شيئا .
- ٣- سخرية القدر أو السخرية بالمفارقة: هي ما تأتي النتائج فيها على غير ما تقتضيه المقدمات، ولعل هذا المفهوم يتردد بكثرة في لغتنا العربية عندما نقول: تقدرون فتضحك الأقدار .
- ٤- والسخرية المغرضة: هي ما تستخف بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية. ولحسن الحظ أن هذه الظاهرة ما هي إلا استثناء من القاعدة العامة التي تؤكد أن السخرية الراقية على مر العصور لم تنفصل عن أهدافها الأخلاقية.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

"يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ" (١).

وقد أثارت هذه الآية الكريمة جدلا طويلا بين العلماء ، حيث أنكر بعضهم نسبة فعل السخرية إلى الله، إذ كيف ينهى عن أمر ويفعله هو.

وحاولوا - على هذا الأساس - تأويل الآيات ، فقالوا: إن قول الله - تعالى -:

"إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٠٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ... " (٢)

قالوا: إن استهزاء الله بهم: عقاب ما، ثم حاولوا تأويل هذا العقاب.

ولعل الدافع إلى هذا القول أمران:

الأول: تنزيه الله عن السخرية؛ لأنها - في نظرهم - مرادفة للعب والعبث، وهما منتفیان عن الله عز وجل بالإجماع (٣).

الثاني: الاستدلال بآية الحجرات التي ورد فيها النهي عن السخرية (٤)

وقد رد على الأمر الأول - الذي ينزى الله تعالى عن نسبة فعل السخرية والاستهزاء والمكرو والخداع إليه، بأن قوله - تعالى - : "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ..."

إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله سخرية ولا استهزاء وأن هؤلاء نافون عن الله - عز وجل - ما قد أثبتته لنفسه، وأوجبه لها؛

لأن السخرية والاستهزاء والمكرو والخداع، إذا كانت على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازة، فلا يمتنع ذلك عن الله.

ويؤيده ما روى عن ابن عباس (رضى الله عنه) في قوله - تعالى - : "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ..."
قال: يسخر منهم للنقمة منهم (٥).

١- سورة الحجرات من الآية: ١١ .

٢- سورة البقرة، من الآيتين: ١٤، ١٥ .

٣- راجع: تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، ج ١/٥٢، الطبعة الأولى، دار الغد العربي ١٩٩١م.

٤- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج ١/١٥٧٧، طبعة دار الشعب .

٥- ابن كثير، ج ١/٥٢ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

"وإذا كان التهديد بالاستهزاء من جانب الله - سبحانه وتعالى - ذى القوة الجبارة التى لا يمكن أن يتصورها بشر، فلا شك فى أن عقلهم الباطن سوف تختلط به الصور، وسوف تلح عليه فى التهويل والمبالغة فى التصوير حتى تفزعه"^(١).

أما من ناحية قول المفسرين، إن الله - عز وجل - نهى عن السخرية واستدلالهم على ذلك بآية الحجرات السالفة الذكر.

فقد رد بعض النقاد على ذلك بأن "السخرية المقصودة هى ذات الطابع الجماعى الذى يهدم المجتمع الإسلامى، ويزعزع وحدته، وهى السخرية التى تسيطر عليها دوافع خبيثة بهدف الإساءة إلى الغير، وهى عادة تكون محملة بالحقد والكراهية"^(٢).

وذلك كعدوان الكفر على الإيمان، والشر على الخير الوارد فى بعض آيات القرآن الكريم^(٣).
أما سخرية أهل الإيمان من الكافرين، وسخرية أهل الحق من أهل الباطل فلا تدخل ضمن السخرية التى نهى الله - تعالى - عنها؛ "لأنها رد على الباطل بالحق، ولأنها شريفة الباعث وهادفة، وكانت نوعاً من التوعيد للساحرين من أجل الباطل"^(٤).

فالسخرية القرآنية تهدف إلى غايات مشروعة، وأسباب معقولة، فهى فى الاستخدام القرآنى جاءت لأغراض الجزء، أو الدفاع، أو التقويم"^(٥).

ولا يخفى أنه لا يوجد وجه للمقارنة هنا بين هاتين السخريتين: سخرية هدامة حاقدة تافهة، وأخرى بناءة خيرة، تدافع عن الحق والخير، وتنشد المثل العليا.

١- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/٧٥ بتصرف يسير.

٢- د. حامد الهوال السخرية فى أدب المازني/ ٧، ٨.

٣- كقوله تعالى: "زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا" البقرة: ٢١٢ وقوله: "الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم" التوبة: ٧٩ - وقوله: "ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه" الخ" ٥ هود: ٣٨، ٣٩ - وقوله: "بل عجب ويسخرون، وإذا ذكروا لا يذكرون" وإذا رأوا آية يستسخرون" الصافات: ١٢، ١٣، ١٤.

٤- السخرية فى أدب المازني، د. حامد الهوال/ ٩.

٥- راجع: النقد الساخر فى أدب المعري، إعداد: عدنان عبد العلي/٥، (رسالة دكتوراه باللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

لأجل ذلك، فنحن "لا نعتبر السخرية - على عمومها - تقع في دائرة التحريم وإلا لما أسندها الله تعالى إلى ذاته في الآيات الكريمة، بل إن إسنادها إلى ذاته يعطى الإباحة على إطلاقها في إطار الخدمة العامة، والتوجيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر" (١) .
هذا، وتمتاز السخرية القرآنية بأمر منها: براعة التصوير، والإيجاز والتسامي والدعوة إلى التفكير (٢) .

وقد ترتب على ذلك أن انتقل الهجاء العربي في الشعر من التهكم الساذج والتنازب الطفولي الذي كان منصبا على العيوب الجسمانية، أو الفقر، أو الاستضعاف الاجتماعي والطبقي، إلى السخرية العقدية، والفكرية، والأخلاقية (٣) .
هذا حديث عاجل عن السخرية الواردة في بعض آيات القرآن الكريم، أما السخرية الأدبية، التي هو موضوع هذه الدراسة فهي أسلوب نقدي له ميزته الفنية ويعتبر في واقع بناء للحياة، وحارسا للمثل العليا (٤) .

ومع ذلك، فقد يتعمد أسلوب السخرية أحيانا "أن يوقع بعض الأشخاص أو الجماعات، أو بعض الأنظمة السياسية والاجتماعية في حرج مقصود؛ ليدفع بذلك حرجا أكبر عن الجماهير، ويرد خطرا قائما على المجتمع أو متوقعا، مما يعتبر عملا إنسانيا شريفا وساميا" (٥) .

فهي إذن "سخرية بناءة، تصلح وتستل العيوب، وتأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم" (٦) .
وبذلك كله نستطيع أن نجهر بأن السخرية الأدبية - بهذا المفهوم - تختلف عن السخرية التي نهى القرآن الكريم عنها .

-
- ١- السخرية في أدب المازني، د. حامد الهوال/ ١١ .
 - ٢- راجع: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفنى/ ١٠١ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .
 - ٣- انظر: النقد الساخر في أدب المعري، إعداد: عدنان عبيد العلى/ ٦ .
 - ٤- السخرية في أدب المازني/ ٨ .
 - ٥- المصدر السابق/ ٨ بتصرف .
 - ٦- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/ ٨٢ .